

مجلة البحث العلمي الإسلامي

ترخيص من وزارة الإعلام رقم ٢٠٠٤/٣٦٤

مجلة إسلامية شهرية متخصصة تعنى بالبحوث والدراسات الإسلامية (تصدر كل ثلاثة أشهر مؤقتاً)

السنة الثالثة ـ العدد الخامس عشر ـ جمادى الثاني ١٤٢٩هـ ـ حزيران ٢٠٠٨م .

الحوالات المصرفية باسم

مجلة البحث العلمي الإسلامي

بنك البركة ـ لبنان ـ طرابلس

حساب رقم: ١٣٩٠٣

المراسلات: لبنان ـ طرابلس ص.ب ٢٠٨

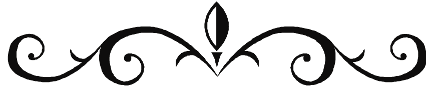
تلفاكس: ٠٠٩٦١٦٤٧١٧٨٨

بريد إلكتروني:

albahs_alalmi@hotmail.com

للاشتراك في المجلة

يرجى إرسال طلب الاشتراك على عنوان المجلة، موضحاً عنوانك البريدي، مع إرسال قيمة الاشتراك على حساب المجلة وإشعارنا بذلك الطلب .



الاشتراك السنوي مضافاً إليه أجور البريد

لبنان ٣٠٠٠٠ل.ل ـ السعودية ١٠٠ريال ـ الكويت ٨ دنانير ـ الإمارات ١٠٠درهم ـ الدول العربية ٣٠دولاراً أمريكياً ـ الدول الأجنبية ٤٠ دولاراً أمريكياً .



سعر النسخة

لبنان ٢٠٠٠ل.ل ـ السعودية ١٠ريالات ـ الكويت ١دينار ـ الإمارات ١٠دراهم ـ الدول العربية ٣ دولارات أمريكية ـ الدول الأجنبية ٥ دولارات أمريكية .

شروط يجب أن تتوفر في البحث
الذي يراد نشره في المجلة

إتاحة في الفرصة للمشاركة في الكتابة على صفحات المجلة، وللإفادة من أبحاث العلماء والباحثين، فإن إدارة المجلة ترحب بالمشاركة في مجلة البحث العلمي الإسلامي، وفق الشروط التالية:

❁ أن يكون البحث متخصصاً في مسألة من المسائل العلمية، أو قضية من القضايا الإسلامية النازلة .

❁ أن لا تقل عدد صفحات البحث عن ست، ولا تزيد على عشرين من حجم الورق (A٤) .

❁ أن يتسم البحث بالأسلوب العلمي النزيه الهادف، بعيداً عن المسائل السياسية، وأن لا يتعرض فيه لجهات، أو هيئات، أو أشخاص .

❁ يجب أن يكون البحث موثقاً بعزو المصادر، وتخريج الآيات والأحاديث

❁ أن يكون مطبوعاً على الآلة الكاتبة، أو الحاسوب (الكمبيوتر).

❁ أن يكون البحث جديداً غير منشور .

❁ إرفاق نسخة عن سيرة الباحث الذاتية، مع كتابة عنوانه بالتفصيل .

ملاحظات

❁ لا يلزم من تسليم البحث وإيصاله إلى إدارة المجلة اعتماده ونشره .

❁ لا يدفع للباحث أي مبلغ مقابل نشر بحثه في المجلة .

❁ لا تلتزم إدارة المجلة بإعادة البحث الذي لم ينشر إلى كاتبه .

❁ إن نشر البحث في مجلة البحث العلمي، لا يعني بالضرورة تبنيه، ويبقى تعبيراً عن رأي كاتبه .

المحتويات



لَوْمُ النّفس في بيان أسباب رفع الأمن

بقلم : هيئة التحرير

مُقدّمة:

إنّ الحمد للّه نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهدِه اللّه فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢] .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء: ١] .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١] .

أما بعد، فإن أصدق الحديث كتاب اللّه، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار .

إنَّ الأمن مطلب عظيم من مطالب الشعوب، فلا تتحقق مقاصد الحياة ووسائلها مع اختلال الأمن، ولذلك امتنَّ اللّه على أهل قريشٍ أن هيّأَ لهم أسباب الأمن في رحلاتهم التجارية لكونهم أهل بيته الحرام، فقال : ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾ [قريش: ١ ـ ٤] .

أسباب رفع الأمن :

إنّ رفع الأمن له أسباب، ينبغي أن يتبصَّر بها القائمون على مجالس الأمن، والجهات المسؤولة، ليعرفوا حقّ المعرفة من المتسبب بزعزعة الأمن وتعريض الآمنين إلى الخطر، فإنّ الأمن يُرفع بأسباب، ومن هذه الأسباب :

١ ـ الكفر بالله سبحانه، والخروج على شريعته، ونشر الفساد في الأرض، ممّا يغضب الله سبحانه المتصرف في هذا الكون بأنواع التصرفات، ومنها : إحلال الأمن .

٢ ـ الظُلم والجور، والاعتداء على الآمنين، وفي الحديث : « **الظلم ظلمات يوم القيامة** ».[١] وقد سمَّى النبي ﷺ الظالم المعتدي على الأموال والأعراض والحرمات: مُفلساً، فقال النبي ﷺ: « **أتدرون ما المفلس ؟** » . قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال : « **إنَّ المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ، ويأتي قد شتم هـذا، وقـذف هـذا، وأكـل مال هذا، وسفك دمَ هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه، أُخذ من خطاياهم فطُرِحت عليه، ثم طُرِح في النار** ».[٢]

وعن جابر ﷺ قال : لمَّا رَجَعَت إلى رسول الله ﷺ مُهاجرةُ البحر، قال : « **ألاّ تحدّثوني بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة ؟** » قال فتية منهم : بلى يا رسول الله ! بينا نحن جلوس مرَّت بنا عجوز من عجائز رهابينهم تحمل على رأسِها قُلَّةً من ماء فمرَّت بفتى منهم، فجعل إحدى يديه بين كتفيها، ثم دفعها فخرَّت على ركبتيها فانكسرت قُلَّتها، فلمّا ارتفعت التفتت إليه، فقالت : سوف تعلم يا غُدَرُ ! إذا وضع الله الكرسي وجمع الأوّلين والآخرين، وتكلَّمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، فسوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غداً . قال : يقول رسول الله ﷺ: « **صَدَقَتْ، صَدَقَتْ، كيف يُقدِّس اللهُ أُمّةً لا يُؤخذ لضعيفهم من شديدِهم** ».[٣] ومعنى يُقدِّس : أي يطهّر [٤].

---

(١) رواه البخاري (٢٤٤٧) في كتاب المظالم، (باب الظلم ظلمات يوم القيامة) . ومسلم (٢٥٧٩) في كتاب البر والصلة والآداب، (باب تحريم الظلم) .

(٢) رواه مسلم (٢٥٨١) في كتاب البر والصلة والآداب، (باب تحريم الظلم) .

(٣) رواه ابن ماجه (٤٠١٠) في كتاب الفتن، (باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) . وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه .

(٤) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير الجزري، مادة: قدس .

٣ ـ ظهور الفاحشة، والتفاخر بها في الشوارع والجامعات، ووسائل الإعلام، ويتبع ذلك : إعلان الاستهزاء بأهل العفاف الخائفين من غضب رب العالمين .

٤ ـ شيوع الربا والمعاملات الاقتصادية الفاسدة التي سيطرت على الأسواق التجارية، وهو أمر وظاهرة مؤذنة بحرب من الله ورسوله ﷺ كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٧٨ ـ ٢٧٩] .

٥ ـ شرب الخمر أُمّ الخبائث، والتي تُخرج الإنسان عن كونه عاقلاً فتلحقه بغير العقلاء، فيسكر ويهذي ويقذف، ويعتدي على الأعراض وغير ذلك .

٦ ـ منعُ حق الفقراء والمساكين، وعدم إخراج الزكاة لتطهير المال .

وبالجملة، فإن الخروج عن شريعة الله ومنهجه في الحياة مؤذن بخراب المجتمعات، وفي الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال : « **يا معشر المهاجرين ! خمسٌ إذا ابتليتم بهنَّ وأعوذ بالله أن تُدركوهنَّ : لم تظهر الفاحشة في قومٍ قط حتى يُعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضَوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسنين وشدَّة المؤونة وجَور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم ُيمطروا، ولم ينقُضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلَّط الله عليهم عدواً من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمَّتهم بكتاب الله، ويتخيَّروا ممّا أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم** » .[1]

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ: « **ليشربنَّ ناس من أمتي الخمر يُسمونها بغير اسمها، يُعزف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات، يخسف الله بهم الأرض، ويجعل منهم القردة والخنازير** » .[2]

فهلاً اعتبرنا ممّا يصيبنا ورددنا ذلك إلى ذنوبنا، ونحن نسمع في كل شهر أو أقل كارثة زلزال أو هزةٍ أرضية، توقع عشرات الآلاف من القتلى كما في الصين، وقبلها

---

(١) رواه ابن ماجه (٤٠١٩) في كتاب الفتن، (باب العقوبات) . وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه .

(٢) رواه ابن ماجه (٤٠٢٠) في كتاب الفتن، (باب العقوبات) . وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه .

تسونامي، وبعدها من تسليط أراذل القوم على خيارهم، كل ذلك تصديق قول اللّه ﷻ في الحديث القدسي : « **إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثمّ أوفيكم إياها ، فمن وجد خيراً فليحمد اللّه ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه** ».[١]



(١) جزء من حديث قدسي رواه مسلم (٢٥٧٧) في كتاب البر والصلة والآداب، (باب تحريم الظلم) .



لماذا ندعو إلى اتّباع السلف الصالح ؟

فضيلة الشيخ محمد عيد العباسي ۞

مُقَدِّمَة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه، أما بعد ،

فإن الذي يدعوني إلى كتابة هذا البحث هو أن مسألة الإقرار بفضل السلف ووجوب اتباع هديهم ومنهجهم وفهمهم للكتاب والسنة هو الفارق الأكبر، والفيصل الأظهر بين أهل السنة وبين أصحاب البدع والأهواء، فلذلك لزم كل داعية أن يفهم هذا الموضوع فهماً صحيحاً مدعوماً بالأدلة حتى ينجو من الضلال والانحراف، ويتمكّن من هداية غيره إلى الصراط القويم . ومن الله أرجو العون والتوفيق .

من هم السلف :

السلف من كل أمة هم القوم المتقدّمون السّابقون، ويقابلهم الخلف الذين يجيئون بعدهم ويخلفونهم، وفي الحديث أن النبي ﷺ مرَّ بقبور أهل المدينة فأقبل عليهم بوجهه فقال : « **السلام عليكم يا أهل القبور، يغفر الله لنا ولكم، أنتم سلفنا ونحن**

۞ من مواليد دمشق عام ١٩٣٨م . درس على عدد من مشايخ دمشق، ولازم المحدث الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله، مدةً طويلةً، حاصل على الإجازة (الليسانس) في الآداب من جامعة دمشق عام ١٩٦٠م، وحصل على الدبلوم في التربية من نفس الجامعة عام ١٩٦١م. عُيِّن مدرساً في سورية لمادة اللغة العربية، وأُعير للمعاهد العلمية بالمملكة العربية السعودية عام ١٩٦٦م. وفي عام ١٩٩٤م عُيِّن مشرفاً تربوياً في بعض المدارس الأهلية في الرياض . وقد تفرّغ بعدها للبحث العلمي والتأليف . من مؤلفاته : بدعة التعصب المذهبي وآثارها في جمود الفكر وانحطاط المسلمين . حقّق عدداً من الكتب، منها : منار السبيل في الفقه الحنبلي، كما له مؤلفات وتحقيقات أخرى .

بالأثر... »[١] . وقال الله تعالى : ﴿ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ ﴾ [مريم: ٥٩] .

وقد ورد تحديد السّلف بأنهم أهل القرون الثلاثة الأولى عن النبي ﷺ، وذلك في قوله : « **خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم إنّ بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يفون، ويظهر فيهم السِّمَن** » .[٢]

والقرن في لغة العرب تُطلق على أهل كل زمان، وقيل: أربعون سنة، وقيل: ثمانون، وقيل: مائة، وقيل: هو مطلق من الزمان، كذا قال ابن الأثير في (النهاية) . والراجح أنّ المُراد به هنا مائة سنة، فقد استعمله النبي ﷺ في حديث آخر بهذا المعنى، وذلك في قوله ﷺ لعبد الله بن بُسر المازني رضي الله عنه: « **لَتَبلغنّ قرْناً** » . فعاش مائة سنة[٣]، ومات سنة ثمان وثمانين وهو ابن مائة سنة، كما قال العسقلاني في الإصابة، وهو آخر من مات بالشام من الصحابة ...

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : صلى بنا رسول الله ﷺ ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته، فلمّا سلّم قام، فقال : « **أرأيتم ليلتكم هذه، فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممّن هو على ظهر الأرض أحد** » . قال ابن عمر: فوهل الناس في مقالة رسول الله ﷺ تلك فيما يتحدثون من هذه الأحاديث عن مائة سنة، وإنما قال رسول الله ﷺ: « **لا يبقى ممّن هو اليوم على ظهر الأرض أحد** » . يريد بذلك أن ينخرم ذلك القرن .[٤]

وبناءً على ما سبق، فيمكننا أن نحدِّد المقصود بأهل القرون الثلاثة الفاضلة، أنّهم الذين عاشوا بين عامَي البعثة النبوية، وتمام عام ثلاثمائة للهجرة، وتشمل هذه الفترة نحو خمسة أجيال من المسلمين، وهي مجموع الطبقات الاثنتي عشرة التي وضعها الحافظ

---

(١) أخرجه الترمذي (١٠٥٣) في كتاب الجنائز، (باب ما يقول الرجل إذا دخل المقابر) . وقال : حديث حسن غريب . وضعّفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي .

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٥٠) في كتاب فضائل الصحابة، (باب فضائل أصحاب النبي ﷺ ورضي الله عنهم) . ومسلم (٢٥٣٥) في كتاب فضائل الصحابة، (باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) .

(٣) أخرجه أحمد (١٨٩/٤) .

(٤) أخرجه البخاري (١١٦) في كتاب العلم، (باب السمر في العلم) . ومسلم (٢٥٣٧) في كتاب فضائل الصحابة، (باب قوله ﷺ : « **لا تأتي مائة سنة وعلى الأرض نفس منفوسة اليوم** ») .

ابن حجر في كتابه (التقريب) لمن ترجم لهم من أصحاب الكتب الستة، وتضمّ طبقات الصحابة، والتابعين، وأتباع التابعين، وتبع الأتباع، وتبع تبع الأتباع، وهؤلاء هم الذين يشملهم اسم السلف . وإنّما أثنى عليها رسول الله ﷺ ووصفها بأنّها خير القرون لأنّ غالب أهل تلك الفترة كان يغلب عليهم صلاح المعتقد والسلوك، فكانوا على منهج النبوة والرّشاد بخلاف من جاء بعدهم، الذين غلب عليهم الابتداع وسوء المعتقد والعمل، وكان الطّالحون الفاسدون فيهم أكثر من الصّالحين .

نعم كان في عهد السلف سيِّئون وأشرار ومُبتدعون، ولكنّهم كانوا قليلين، والغالب على الناس الصلاح والاستقامة بخلاف قرون الخلف التالية، وعلى كل حال فنحن إنّما ندعو إلى اتباع السّلف الصالح، وليس أيّ واحد من السلف، وهؤلاء هم الذين عناهم النبي ﷺ بحديثه عن الجماعة كما ورد في كثير من الأحاديث كقوله ﷺ: « **عليكم بالجماعة، وإيّاكم والفُرقة** ».[١] وقوله : « **يدُ الله مع الجماعة** ».[٢]

سبب تفضيل السّلف ومنهجهم :

وبعد تقرير ما سبق أعود إلى صلب الموضوع وهو بيان الأسباب التي تدعونا إلى اتّباع السلف والدعوة إلى ذلك، وأقول : إنّ الذي يدعونا إلى ذلك بكلّ إصرار وحزم ويقين أمور كثيرة ، أهمها:

أولاً : أنّ هذه القرون قد حظيت بثناء الله تبارك وتعالى وتزكية رسوله ﷺ ، وتجد ذلك في كثير من الآيات والأحاديث، ولو ذهبت إلى استقصائها لطال المقام جداً، فأكتفي بذكر ثلاثة مواضع من كلٍّ من المرجعين :

فأما القرآن الكريم، فقد قال الله تعالى فيه :

أ ـ ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [التوبة: ١٠٠] .

ب ـ وقال تعالى : ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا

(١) أخرجه الترمذي (٢١٦٥) في كتاب الفتن، (باب ما جاء في لزوم الجماعة) . وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٦٦) في كتاب الفتن، (باب ما جاء في لزوم الجماعة) . وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفتح: ٢٩].

جـ - وقال سبحانه: ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر: ٨ - ١٠].

وأما الأحاديث النبوية فأكتفي بثلاثة منها:

أ - الحديث الذي سبق قريباً، وهو قوله ﷺ: « **خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم...** »[١].

ب - عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: « **لا تسبّوا أصحابي، فلو أنّ أحدكم أنفق مثل أُحدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه** »[٢].

جـ - وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: رفع النبي ﷺ رأسه إلى السماء، وكان كثيراً ممّا يرفع رأسه فقال: « **النجوم أَمَنَة للسّماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السّماءَ ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أُمّتي ما يوعدون** »[٣].

وهذه التزكية ثمينة جداً لمن يُقدِّر الأمور حقّ قدرها، فحسبها أن تكون من الخالق العظيم والمدبّر الحكيم العليم الخبير سبحانه، ومن رسوله الخاتم وخير أنبيائه عليهم جميعاً أفضل الصلاة والتسليم، فلا جرم أن اتّفق أهل السنة والجماعة على أنّ

---

(١) بعضهم يرويه: « **خير القرون قرني ...** » ولم يرد في شيء من الروايات بهذا اللفظ.

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٧٣) في كتاب فضائل الصحابة، (باب قول النبي ﷺ: « **لو كنت متخذاً خليلاً** »). ومسلم (٢٥٤١) في كتاب فضائل الصحابة، (باب تحريم سبّ الصحابة).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٣١) في كتاب فضائل الصحابة، (باب بيان أن بقاء النبي ﷺ أمان لأصحابه وبقاء أصحابه أمان للأمة).

السّلف خير أجيال البشرية جميعها على الإطلاق حاشا الأنبياء عليهم السلام .

ولم يكن هذا محاباة من الله تعالى ورسوله ﷺ للسلف، كلا ثم كلا، بل كان ذلك لما علم الله عنهم من الأهلية والاستحقاق، فكما أنّ الله تعالى قد اختار أنبياءه من صفوة بني آدم كما قال : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فكذلك حين اختار أصحاب أنبيائه فقد اختارهم من خير الناس، وخاصة أصحاب آخرهم وخاتمهم محمد ﷺ فهم خير الأصحاب والأتباع، كما قال فقيه الصحابة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ونحوه الصحابي الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، عزاه محقق جامع بيان العلم إلى (الحلية ١/٣٠٥ ـ ٣٠٦) لأبي نعيم، قال ابن مسعود رضي الله عنه: « **من كان منكم متأسّياً فليتأسّ بأصحاب محمد ﷺ، فإنهم كانوا أبرّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلّها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، قوماً اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ﷺ وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتّبعوهم في آثارهم، فإنّهم كانوا على الهدي المستقيم** » .[1]

ثم إنّ الواقع التاريخي ليشهد بصدْق هذا الثناء وهذه التزكية، فلم يعرف التاريخ مثل أصحاب النبي ﷺ وتابعيهم ومَنِ اتّبعهم بإحسان في إيمانهم وتقواهم، وحُسْن خُلُقِهم، وصِدْق تعاملهم، وإحسانهم للخَلْق، ورحمتهم بهم، ومعرفتهم بالحقّ، ووقوفهم عند حدود الله، وعدْلهم وإنصافهم، وعِفّتهم ونزاهتهم، ويكفي أن أعداءهم شهدوا لهم بذلك، وقد قيل : والفضل ما شَهِدَت به الأعداء .

ثانياً : أن الله تعالى أمرنا باتّباعهم والاهتداء بهَدْيهم، وتوعّد مَنْ يُخالف سبيلهم بالعذاب الأليم : فليس اتّباعهم والدعوة إلى الاقتداء بهم نزعة خاصّة أو رأياً اجتهادياً قاله بعض الناس تعصُّباً لهم، بل هو أمر إلهي صريح، ونصّ نبوي صحيح، نطق به الكتاب العزيز، وثبت في حديث النبي ﷺ الشريف، فقد قال سبحانه : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥] .

ومن كان المؤمنون عند نزول هذه الآية الكريمة إلا إيّاهم ؟

---

(١) جامع بيان العلم لابن عبد البر (٢/٩٤٧) .

وقال جل شأنه : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٦ ـ ١٣٧] . وهل كان هذا الخطاب يوم نزول هذه الآية إلا لهم ؟

وقال رسول الله ﷺ في موعظته البليغة التي وَجِلَتْ منها القلوب وذَرَفَتْ منها العُيون . وقال عنها مَنْ رواها كأنّها موعظة مودِّع لأصحابه : « ... **فإنّه مَنْ يَعِشْ منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنّتي، وسنّة الخلفاء الرّاشدين المهديّين، تمسّكوا بها وعضّوا عليها بالنّواجذ، وإيّاكم ومحدثات الأمور، فإنّ كل محدثةٍ بدعة، وكل بدعة ضلالة** » .[(١)]

وقال الرؤوف الرحيم بأمّته ﷺ موصياً إياها : « **اقتدوا باللّذين من بعدي من أصحابي أبي بكر وعمر، واهتدوا بهدْي عمار، وتمسّكوا بعهْد ابن مسعود** » .[(٢)]

ويتّضح بشكل قاطع لا مِرْيَةَ فيه أنّ الله تعالى يأمرنا في هذه النصوص الصحيحة الصريحة باتّباع سبيل السّلف ومنهجهم وهدْيهم وفهمهم للدّين وتطبيقهم له، بل ويهدِّد مَنْ يخرج عن سبيلهم بأشدّ عذاب، وأشقى مصير .

فتأمّل معي الآية الأولى، وانظر كيف قَرَنَ الخروج عن سبيل المؤمنين بمشاقة الرسول ﷺ والخروج عليه، ولم يكتفِ بتهديد مَنْ يشاقق الرسول ﷺ، بل أضاف إليه تهديد مَنْ خرج عن سبيل المؤمنين، وسَلْ نفسك ـ أخي القارئ ـ : مَنْ كان المؤمنون عند نزول الآية غير أصحاب النبي ﷺ ؟ فَهُمُ المعنيّون بذلك أولاً، ثم مَنْ سار على درْبهم واقتدى بهم من بعدهم ثانياً .

وهذا نفسه تجده في الآية الثانية إذ أمر الله تعالى المؤمنين أن يؤمنوا بالله وبما أنزل على أنبيائه جميعاً إيماناً مُجملاً، وبما أنزل على عبده محمد ﷺ إيماناً مفصّلاً . ثم

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧) في كتاب السنة، (باب في لزوم السنة) . وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود .

(٢) أخرجه الترمذي (٣٨٠٥) في كتاب المناقب، (باب مناقب عبد الله بن مسعود ﷺ) . وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي .

حكم على الناس بالهداية والرّشاد إذا آمنوا إيماناً مُماثلاً ومُطابقاً لإيمان الصحابة ﭫ وحكم على مَنْ يخرج عن إيمانهم، فيؤمن إيماناً مُخالفاً لإيمانهم، ويعتقد ما لم يعتقدوه، أو خلاف ما اعتقدوه، حكم عليه بالضّلال والخسران، وبأنه سيكون أمره إلى شِقاق وخيْبة وخسـار . فهو هنا حينما قال : ﴿بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ١٣٧] إنّما يُخاطب الصحابة ﭫ دون غيرهم، الذين كانوا وحدهم المؤمنين في الأرض حينما نزلت هذه الآية الكريمة .

ثم انتقل معي ـ أخي القارئ ـ إلى الحديثين الشّريفين السّابقين، فماذا ترى ؟

لقد وعظ النبي ﷺ أصحابه في الحديث الأول، تلك المَوْعظة البليغة التي وَصَفها مَن حضرها بأنها وصيّة مودِّع، وحضهم بتلك الوصية الثّمينة ـ وكلّ أحد منّا حين يوصي خاصّته وأحبّاءه وصيّة الوداع فإنّما يقدّم لهم خلاصة ما تعلّمه في الحياة وأثمن ما لديه من معرفة وخبرة وتجربة ـ فماذا كانت تلك الوصيّة ؟

لقد أخبرهم أنّ الأمة بعده ستختلف اختلافاً كثيراً، وستفترق شيَعاً وأحزاباً، فدلّهم على طريق النجاة، وهداهم إلى سبيل الخَلاص، فما كان ذاك الطريق ؟ إنّه كان في أمريْن لا ثالث لهما : أولهما التّمسك بسنّته ﷺ ولا شكّ أنّ السنّة هنا هي الشريعة والمنهج، فهي تتضمّن مجموع الكتاب والسنّة، وثانيهما التّمسّك بسنّة صفوة أصحابه وخُلَّص أتباعه وهم خلفاؤه الراشدون المهديّون ﭫ .

وهنا يرد سؤال مهمّ : تُرى لماذا لم يَكْتَفِ النبي ﷺ بأمرهم باتّباع سنّته وطريقته وحدها ؟ أليْست كافية لهدايتهم حتى ألحقها بأمرِه إيّاهم باتّباع سنّة خلفائه الراشدين ؟

إنّ الجواب على هذا السّؤال جدير بالتّوقّف عنده، وتأمّله والتّفكير فيه لكلّ مَنْ أراد السّلامة والنّجاة لنفسه وأحبّته في الدنيا والآخرة .

لقد عَلِمَ النبي ﷺ فيما يبدو ممّا أوحيَ إليه أنّ هذه الشِّيع والأحزاب التي ستتفرّق إليها أمته، كلّ منها سيدّعي اتباع الكتاب والسنة، ولن تستطيع واحدة منها أن تتجرّأ على التّصريح بالخروج على الكتاب والسنة، لأنّها إنْ فعلت ذلك سقطت ورفضت من الجميع، فاتخذت هذه الفِرق حِيلاً، وذلك بادِّعاء الإيمان بالكتاب والسنة واتّباعهما لِتُغرِّر بذلك جماهير المسلمين، ثم تفرغهما من مضمونهما وتلتفّ على مقاصدهما، وتتخلّص من دلالاتهما عن طريق أنواع من التأويل الغريب، وليّ لِعُنُق النّصوص عجيب،

فيه كثير من التّكلّف والتّمحّل، ولن يعدموا من وَساوِس الشياطين ما يمدّهم بأنواع من التّفسيرات المتعسّفة، هذا فضلاً عن محاولة ردّ ما يمكن ردّه من الأحاديث المناقضة لأهوائهم بشتّى الطّرق كادّعاء ضعْفها أو نسخها أو غير ذلك . فكان من تدبير الله عزَّ وجلّ المُحكم لإبطال مكرهم هذا أن أوحى إلى نبيّه ﷺ أن يأمرهم بالإضافة إلى اتباع سنّته المتمثّلة في كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ باتّباع سنّة أفضل أصحابه وأوثقهم، وهم خلفاؤه الراشدون، والصّفوة من أصحابه الآخرين مثل ابن مسعود وعمّار وأبيّ ونحوهم، لذلك ربّاهم على عيْنه، ووثق بفهْمهم وسداد منهجهم، وعلم عن طريق الوحي الإلهي إخلاصهم الدين لله والاستقامة على أمره، وبــذلك أبطل خــطّتهم الـخبيثة، وقطع عليهم سبيلهم المنحرف وأقام عليهم الحجة، فقد عصم الله تعالى الصحابة جميعاً عن اتباع أيٍّ من تلك الفرق الضّالة، وعلم سبحانه أنّ أحداً منهم لن يكون في واحدة منها، ولن يغترّ بحيلهم ودعاواهم، وقد اتــضح لــكل المسلمين أنّ كــلّ الفرق الضّالة مخالفة لمنهج الصحابة الكرام، وهذا وحده كافٍ لبيان زيْفها وضلالها لمن كان مخلصاً في معرفة الحق، وجادّاً للوصول إليه .

ثالثاً : لأنّ الأدلة من النّقل والعقل والواقع التاريخي، والسنة الطبيعية للأمور تثبت أنّ مــنهج السّلف الــصالح هــو المنهج الصحيح، وأنّ فــهمهم للكتاب والسنة هو الفهم السديد، وأنّ إدراكهم لروح الإسلام ومقاصده وتوجيهاته هو الإدراك الرشيد، وليست هذه دعوى مبنيّة على العاطفة والحماسة، بل هي حقيقة ناطقة تقرّرها براهين ساطعات، وبيّنات راسخات رسوخ الجبال الشّاهقات الرّاسيات، فمن ذلك :

١ ـ أنّ سادة السّلف وهم أصحاب النبي ﷺ كانوا عرباً أقحاحاً، رضعوا لغة العرب التي هي لــغة القرآن، ولغة نبيّ الإسلام، رضعوها مــع حليب أمّهاتهــم، وأتقنوا أساليبها ومراميها، وفقهوا بــلاغتها ولهجاتها، ولم يحتاجوا لتعلّمها عن طــريق الكتب والمعلّمين بعد الــكِبَر، فلا يستطيع أحد أن يُنكر ويُكابر في أنّهم يمتازون عن أجيال الخلف في هذه الناحية، ويتفوّقون عليهم تفوّقاً ظاهراً .

٢ ـ أنّهم تلقّوا القرآن غضّاً طريّاً، وهو ينزل على قلب محمد ﷺ، وعاينوا الأحداث التي مرّت بهم وكانت سبباً لنزول كثير من آياته وسُوَره، فأدركوا مناسبات الآيات، وسياقها ووجهتها، وتفاعلوا معها، وفهموها حَقّ فهْمها، وهذا أيضاً جانب آخر

ممّا امتازوا به على مَنْ جاء بعدهم .

٣ ـ أنهم سمعوا من النبي ﷺ مباشرةً دون واسطة، فغالب ما نقلوه عنه أخذوه مِنْ فـيه، وسـمعوه فعاينوا لهجته وإشارته، وأدركوا منحاهُ ووجهته، وعرفوا مناسبة وروده ومقصده، بينما يحتاج مَنْ جاء بعدهم إلى دراسة واسعة وعميقة لعدّة علوم، مثل مصطلح الحديث وعلم الجرح والتعديل، وعـلم غريب الـحديث، وعـلم مشكل الحديث، وعلم الرّجال والتّراجم... هذا فقط لمعرفة الحديث الثابت الذي قاله النبي ﷺ ممّا لم يثبت، ثمّ تأتي المرحلة الثانية وهي فهْم مَتْنِهِ ومعناه وما يُستنبط منه وما يُستفاد، وهي رحلة شاقّة لا يطيقها إلا الأفْذاذ من الرّجال، فلا أحـد يستطيع أن يـنكر تـفوّق الـسّلف وخاصّة الصحابة ﷺ في ذلك على كلّ مَنْ عداهم تفوّقاً بارزاً جليّاً .

٤ ـ أنّ السّلف الصالح تلقّوا الإسلام وتعاليمه صافية نقيّة، لم يخلطوها بثقافات وافدة من أديان وثنيّة أو كتابيّة محرّفة، أو فـلسفات وَضْعيّة، أو عـلوم كلاميّة، بل كانوا على الفطرة السليمة، فعقلوها نظيفة، خـالية من الشوائب والخلافات، صحيح أنّهم كانوا قبل الإسلام على عقائد المشركين، لكنّ الشرك الذي كان في الجزيرة كان شِركاً بسيطاً سطحيّاً ساذَجاً، لم يـستند إلى نـظريات معقّدة، أو فـلسفات مدروسة، فلم تكن له كتب ولا ثقافات، ولا مدارس فكرية وتعقيدات، بل كان مجرّد ظنون وأوْهام، ما إن بزغت عليها شمس الإسلام حتى أذابتها وأزالتها، ولئن عاند أهلها ودافعوا عنها مدّة إلا أنّه كان عناد المقلّدين المتشبّثين بما كان عليه الآباء والأجداد فحسب .

بينما كان الخلف في عامّتهم قد أفسد فطرتهم وأضلّ عقولهم ما درسوه من علم المنطق والفلسفة والكلام، فكانت لهـم ثقافاتهم الـسابقة، وأفكارهم القديمة، فلما جاءهم الإسلام، اختلطت تعاليمه بما كان لديهم مـن الإرث الثقافي الـقديم، وحاولوا الجمع بين الثقافتين، ولكن كان هذا على حساب نقاء تعاليم الإسلام وتوجيهاته، ففقد رواءَه، وتشوَّه جماله، وأمّا السّلف فكانوا بمنأى عن ذلك، ولهذا تميّز فهْمهم للدّين بالأصالة والصّفاء والسلامة من التبديل والتّحريف .

٥ ـ أنّهم عرفوا حقيقة الجاهلية التي جاء الإسلام للقضاء عـليها، لأنّ بـعضهم عاشها بنفسه، والآخرون كانوا حديثي عهد بها، نقلها إليهم أهلوهم وأقاربهم، فلمّا جاء

الإسلام ميّزوا بينه وبين الجاهلية، وأدركوا البوْن الشّاسع بينهما، بينما فقد المتأخّرون من أجيال الخلف معنى الجاهلية الحقيقي، فاختلط عليهم الأمر، فسوَّغوا أموراً في الإسلام هي من الجاهلية، والإسلام منها براء، وخُذْ مثلاً على ذلك، أمراً مشاهداً ملموساً في كثير من بلاد الإسلام وهو تعظيم الأولياء والصالحين، وقصْد قبورهم وبناء أضرحتهم، والطّواف حولها، والتّبرّك بها، والتّوسّل إلى الله بها، بل والنّذر لها والذّبح لها والاستغاثة بها، ذلك كلّه يظنّه كثير من المسلمين في العالم الإسلامي اليوم مع الأسف جائزاً ومشروعاً، بل يعتقدون أنّه من القُرُبات التي يحبّها الله ويرضاها، ويُقرّب من يتعاطاها، مع أنّ نصوص القرآن والسّنّة مستفيضة في إنكار ذلك ونقْضه، لكنّهم يظنون أن الإنكار كان على عبادة الأصنام فقط، وأمّا إذا توجّه التّقديس والعبادة لغير الأصنام كالأنبياء أو الأولياء فليس في ذلك بأس، وليس محلّ إنكار، ولو أمعنت النّظر في سبب ذلك لوجدته في عدم معرفة حقيقة الجاهلية التي حاربها الإسلام.

كثير من مسلمي اليوم يظنّون أنّ التوحيد الذي هو لبّ الإسلام وأسّه هو الإيمان بوجود الله الخالق البارئ الرازق المحيي المميت الضارّ النافع المدبّر للأمور جميعاً ـ وهو ما يسمّى بتوحيد الربوبية ـ ليس غير، مع أنّ هذا النوع من التوحيد وإن كان لازماً وحقّاً إلاّ أنه لا يدخل صاحبه في الإسلام، ولا يُنجي صاحبه من عذاب النار، ولا يُدخِله الجنان، وقد كان يُقرّ بهذا النوع أئمة الكفر ورؤوس الشرك مثل أبي جهل وأبي لهب وعقبة بن أبي مُعيط والعاص بن وائل، والأخنس بن شريق والوليد بن المغيرة، والقرآن يقصّ ذلك علينا بأوضح بيان كقوله سبحانه: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦١]، وقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

وقال جلّ شأنه: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [يونس: ٣١].

نعم كان الجاهليّون يقرّون بأنّ الله هو الخالق الرازق المدبّر للأمور كلّها، ومع ذلك يتوجّهون بالتعظيم والتقديس والعبادة معه إلى الأوثان والأصنام، لا لأنّهم يعتقدون

أنّها تنفع وتضرّ أو أنّ بيدها الأمر، كلاّ بل يعتقدون أنّها واسطة تقرّبهم إلى الله تعالى، وتشفع لهم عنده . وقد ذكر ذلك القرآن الكريم أيضاً، فقال سبحانه فيه : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [الزمر: ٣] . وقال جلّ شأنه : ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٨ ﴾ [يونس: ١٨] .

وهذا نفسه ما يفعله كثير من مسلمي اليوم، وهم يظنّون العبادة محصورة في الصلاة والصّوم والزّكاة والحجّ، ولا يفهمون أنّ النّذر عبادة والذّبح عبادة،والحلِف عبادة، والتّوكل عبادة، والرغبة والـرهبة والـحبّ والطاعة والانقياد والتّذلّل والتقديس، وأهمّ من ذلك كلّه الدعاء والاستغاثة أنّها كلها من صميم العبادة، مع أنّ النصوص في ذلك متضافرة وكثيرة جداً، وأنّها يشملها مـا اصطلح عـليه العلماء بتوحيد الألوهية، بالإضافة إلى توحيد الأسماء والصّفات، بل إنّ بعض المتعالمين من كُتّاب زماننا يدّعي أن أنواع التوحيد هذه هي بدع وهّابية، وليس من الإسلام في شيء، فتأمّل وابْكِ معي على غُربة الإسلام .

أمّا السّلف فقد كانت عقيدة التوحيد بأنواعها من ربوبية وألوهية وتشريع وأسماء وصفات واضحة لا لَبْس فيها ولا غموض . وما ذلك إلاّ لأنهم عرفوا الجاهلية فاجتنبوها، ولذلك كان فاروق هذه الأمة الخليفة الرّاشد الثاني عمر رضي الله عنه محدَّثاً ومُلْهَماً حينما تخوّف من ذلك فقال : (إني أخشى أن ينشأ في الإسلام قومٌ لا يعرفون الجاهلية، مَنْ لا يعرف الجاهلية لا يعرف الإسلام) أو كما قال .

٦ ـ أنّ طبيعة الأشياء، وسنّة الله في الدّعوات في الحياة، لتؤكد أنّ أيّ دعوة أو فكرة تظهر في الحياة، سواءً كانت إلهية أو وضعيّة بشريّة، فإنّها تكون على حقيقتها وأصلها عند ظهورها وأوّل نشوئها في عهد الدّاعي الأوّل إليها، وأنّها ما إن يمرّ عليها حين من الدّهر إلاّ وتبدأ يدُ التّغيير والتبديل تعمل فيها، وكلّما أوْغلت في الزمن كلّما زاد هذا التّغيير والتّبديل، تماماً كنبْع الماء إذا نظرتَ إليه أوّل تفجّره من الأرض فستراه رقراقاً صافياً، نظيفاً رائقاً، ولكنّك إذا انتقلت إليه بعد عدّة أميال فسَيَهولك ما تراه من

الكدر والنّتن، والأوساخ والأوشاب .

وهذا الذي جرى على دعوات الأنبياء تماماً، فنحن نعلم علم اليقين أنّ إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ما دعَوا إلا إلى التوحيد، ثم ها هي دعوتهما بعد حين تنقلب على يد أتباعهما من العرب وغيرهم إلى شرك أكبر وعبادة أصنام، وهذا موسى وهارون وعيسى وأنبياء بني إسرائيل كلّهم ما دعَوْا إلا إلى التوحيد، ثم ها هي دعواتهم تنقلب بعد فترة على أيدي أتباعهم إلى شرك ودعوى أنّ للّه ولداً، وأن الإله ثالث ثلاثة، وأنّه ينام ويندم ويعرض له ما يعرض للبشر . فما سبب ذلك ؟ إنّه لا شكّ تدخّل البشر في دين اللّه، وإضافتهم إليه ما يروْنه من آراء، وحذْف ما لا يروقهم من أحكام، وتعديل ما يروْنه من شرائع، وهكذا .

وقد وقع هذا نفسه لديننا الإسلامي الحنيف الذي جاء به محمد بن عبد اللّه صلوات اللّه وسلامه عليه، وقد أخبر ﷺ عن ذلك بنفسه فقال : « **لتتّبعنّ سَنَن مَنْ قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع، حتى لو سَلَكوا جُحر ضبّ لسلكتموه** » . قلنا : اليهود والنصارى ؟ قال : « **فمن ؟** » .[1]

وروى الصحابي الجليل وأمين سرّ رسول اللّه ﷺ حذيفة بن اليمان رضي اللّه عنهما فقال : كان الناس يسألون رسولَ اللّه ﷺ عن الخير، وكنتُ أسأله عن الشر مخافةَ أن يدركَني، فقلتُ : يا رسولَ اللّه، إنَّا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا اللّه بهذا الخير، فهل بعد هذا الخيرِ من شر ؟ قال : « **نعم** »، قلتُ : وهل بعد ذلك الشر من خير ؟ قال : « **نعم، وفيه دخن** »، قلت : وما دخنه ؟ قال : « **قوم يهدُون بغير هَدْيي، تَعْرِفُ منهم وتُنْكِرُ** »، قلت : فهل بعد ذلك الخيرِ من شر ؟ قال : « **نعم، دُعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها** » ، قلت : يا رسول اللّه، صِفْهم لنا! قال : « **هم من جِلْدتنا، ويتكلّمون بألسنتنا** ». قلتُ : يا رسول اللّه، فما ترى - وفي رواية : فما تأمرني - إن أدركني ذلك ؟ قال: « **تَلْزَم جماعة المسلمين وإمامَهم ؟** » قلتُ : فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام ؟ قال : « **فاعتزل تِلك الفِرَقَ كُلَّها، ولو أن تَعَضَّ بأصلِ شجرة، حتى يدركَكَ**

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٦) في كتاب أحاديث الأنبياء، (باب ما ذكر عن بني إسرائيل) . ومسلم (٢٦٦٩) في كتاب العلم، (باب اتباع سنن اليهود والنصارى) .

الموتُ وأنت على ذلك » .[1]

فقد أخبر النبي ﷺ عمّا سيقع، ووقع كما أخبر، وهذا من دلائل نبوّته ﷺ، فقد بيّن أنّ الإسلام سيتغيّر بفِعل النّاس، الـذين يـضيفون إلـيه تـفسيراتهم، وثقافاتهم، وأهواءهم، ويُغيّرون فيه ويبدِّلون، ويـزيدون ويُنْقِصـون، حتى يصـبح المعروف مُنْكراً، والمنكر معروفاً، كما ثبت في بعض الأحاديث، وحـتى إذا ترك الـناس بـدعة قالوا : تركت السُّنَّة كما في أثر ابن مسعود رضي الله عنه .

أما السّلف الأوّل فيكون الدّين لديهم حديث عَهْدٍ بالنّزول، يكون صافياً نقيّاً، تحرسُه يَدُ النّبوّة، وتحفظه سلامة الفِطرة وصحّة المنهج .

٧ ـ وأمّا الواقع التاريخي فواضح جليّ للعَيان، فَمَنْ يجهل ما كان عليه سلفنا الصالح رضي الله عنهم من الفهم الصحيح المعتدل الرّاشد للإسلام، وَمنْ يجهل ما كانوا عليه من السِّيرة الحميدة، والسّلوك الرّشيد، والتّعامل الأمين، والصِّدق والعفّة والإخلاص، وحُسْن الخُلُق، والعَدْل، والرّحمة والإحسان مع جميع النّاس مسلمِهم وكافِرهم ؟ بل وانتقل ذلك إلى الحيوان الأعجم، والجمـاد الأصمّ، فكانوا واقـعاً عَمَلِيّاً لا كـلاماً نظريّاً، رحمةً للعالمين، ولم يعرف التاريخ أرحم ولا أعْدل ولا أتقى ولا أزكى ولا أطهر ولا أعبد ولا أخشى ولا أخشع، ولا أكثر مراقبة لله واستقامة على أمره منهم على ممرّ الأزمان .

نعم لا أقول : إنهم معصومون، بل هم بشر يُخْطِئون ويُصيبون، ولكنّهم أفضل البشر وخير البشر أجمعين .

خاتمة :

وأخيراً فإننا ندعو إلى اتّباع هَدْي السَّلف الصّالح، ومنهجهم وطريقتهم وفَهْمهم للدّين لأنّ ذلك هو الطريق الوحيد لتحقيق الوحدة الإسلامية عملياً، والحفاظ عليها، هذه الوحدة التي هي من أعزّ أهداف المخلصين، والتي ينشُدُها المصلحون، والتي هي من أهمّ أسباب النّصر والتّمكين، والتي يتوق إليها جمهور المسلمين، ويـرفع شـعارها الـزّعماء والـقادة، يـخطبون بها وُدَّ النّاخبين، ويـستميلون تأييدهم في المناسبات، ويـستثيرون حماستهم ومحبّتهم في الانتخابات .

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٨٤) في كتاب الفتن، (باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة) . ومسلم (١٨٤٧) في كتاب الإمارة، (باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة) .

إنّ كلّ المسلمين المعدودين من أهل القبلة يدّعون الإيمان بالكتاب والسنّة،والالتزام بهما، والاهتداء بهَدْيهما، ومع ذلك تجد بينهم الخلاف والشّقاق على أشدّهما، فلماذا ؟

إنّ ثمّة أسباباً كثيرة، ولكن أهمّها وأكبرها الاختلاف في فَهْم الكتاب والسنة، فكلّ فرْقة تتبنّى فَهْماً للكتاب والسنة مُغايراً لفَهْم الفِرق الأخرى، وكلّ منها يدّعي الفهْم الصحيح، ولا يتنازل عنه . فما هو المخرج وما هو الحلّ ؟

إنّ لكل منها أعلامه وآراءه، ومذهبه وأحكامه، فإذا جَعَلْنا فهْم أحدها هو الأصْل المتّبع، فسيرفض ذلك الآخرون، ويحتجّون عليه، ويقولون : لماذا كان ذلك الفَهم هو المتّبع، وليس فَهْمنا ؟ إنّ هذا تمييز بلا مبرّر، ولن يُقبل أبداً . وأمّا إذا قلنا للجميع : لِيدَعْ كلّ منا فهمه ورأيه وطريقته، ولنرجع جميعنا إلى فهم من نُقِرّ جميعنا بفضلهم، ونثق بعلمهم واستقامتهم ودينهم، وذلكم هو فهم خير الأمة وأفضلها، وأنقاها وأعْلمها، وهم أصحاب النبي ﷺ الأبرار، وآل بيته الأطهار، الذين مات النبي ﷺ وهو عنهم راضٍ، وثَبَتوا على العَهْد، ولم يغيّروا ولم يُبَدّلوا، إنّنا إذا فعلْنَا ذلك فلن يجد أحدٌ منّا غضاضة، ولن يثير ذلك في أيٍّ منّا حساسية، فهذا هو الحلّ الأمثل، والمخرج الأفضل، لأنّ حبّ الصّحابة الكرام، وآل البيت الأعلام ممّا يُجمع عليه المسلمون جميعاً، وهو القاسم المشترك الأعظم بينهم، وبالإضافة إلى ذلك فهو المنهج الأقوم والسّبيل الأسلم المؤيّد بالحجّة، والمدعوم بالبيّنة، والمُستند إلى الوحي المعصوم كما سبق بيانه قريباً .

وبهذا يتحقّق الحُلم الكبير لأمة الإسلام، هذا الحلم الذي سيكون مِفتاحاً للفتح المبين، والنّصر العظيم على الحاقدين والشّانئين، وهو سبيل العزّة والتمكين للإسلام والمسلمين في العالمين بعَوْنِ الله وتأييده، ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ [الروم: ٤ ـ ٥] .

وصلّى الله وسلّم وبارك على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .





حكم تحريم المسلم زوجته على نفسه

فضيلة الشيخ أ. د. خالد بن علي المشيقح ۞

مُقَدِّمَة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه .

أما بعد ،

فإن تحريم الرجل زوجته على نفسه تارة يكون بقصد اليمين، وتارة يكون مجرداً عن قصد اليمين، ولكلٍ حكم يختلف عن الآخر، وقد اختلف العلماء في ذلك على أقوال، فسأعرض لأقوالهم مع ما استدلوا به ثم أرجح ما ظهر لي بالدليل، وذلك لأهمية الموضوع وحاجة الناس إليه .

والله أسأل أن ينفع به فإنه وليّ ذلك والقادر عليه .

تعريف التحريم :

التحريم في اللغة : خلاف التحليل وضده .

ففي الصحاح، ولسان العرب: الحِرْمُ بالكسر، والحرام نقيض الحلال، وجمعه حُرُمٌ .

وقد حرم عليه الشيء حُرْماً وحراماً، وحَرُمَ الشي بالضم حُرْمة وحَرَّمه الله عليه، وحَرُمَتِ الصلاة على المرأة حُرُماً وحُرْماً . والحرام : ما حرّم الله، والمحرم : الحرام ،

۞ أستاذ في جامعة القصيم كلية الشريعة وأصول الدين. حصل على شهادة الدكتوراه من المعهد العالي للقضاء بالرياض، نال درجة أستاذ مشارك من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، ودرجة أستاذ من جامعة الملك سعود بالرياض. طلب العلم الشرعي على الشيخ عبد الله بن إبراهيم القرعاوي، والشيخ محمد بن صالح العثيمين، والشيخ عبد الله غديان، وغيرهم. له مؤلفات كثيرة، منها: إخراج فقه الشيخ محمد بن عثيمين من الشرح الممتع، وتعليقات على كتاب الكافي في فقه أحمد مع الشيخ خالد المصلح، وغيرها.

والمحارم: ما حرّم اللّه، ومحارم اللّيل: مخاوفه التي يحرم على الجبان أن يسلكها .اهـ.[١]

المبحث الأوّل : تحريم الزوجة بغير قصد اليمين :

بأن يقول لزوجته : أنت عليّ حرام، أو يعلقه تعليقاً محضاً لا يقصد منه اليمين أي الحثّ أو المنع أو التصديق أو التكذيب، كأن يقول : إذا دخل شهر شعبان فأنت علي حرام .

فقد تشعبت أقوال العلماء في هذه المسألة، فذكر فيها ابن عبد البر ثمانية أقوال[٢] وابن حزم اثني عشر قولاً[٣]، والقرطبي ثمانية عشر قولاً[٤]، وابن القيم في إعلام الموقعين خمسة عشر قولاً، وفي زاد المعاد ثلاثة عشر قولاً[٥]، وغيرهم [٦].

قال القرطبي : (قال بعض علمائنا : سبب الاختلاف أنه لم يقع في القرآن صريحاً، ولا في السنة نصّ ظاهر صحيح يعتمد عليه في حكم هذه المسألة، فتجاذبها العلماء...) .[٧]

ومن قال لزوجته : أنت عليّ حرام، فإمّا أن يريد إنشاء تحريمها، أو الإخبار عنها بأنها حرام، فإن أراد الإخبار فكذب، وإن أراد بقوله : أنت عليّ حرام إنشاء تحريم زوجته . فقد اختلف العلماء فيما يترتب على قوله هذا على أقوال :

القول الأول :

أنه إن نوى الطلاق فهو طلاق، وإن لم ينوِه كان يميناً .[٨]

وبه قال طاووس والزهري ورواية عن الحسن والنخعي وإسحاق .[٩]

واحتجوا بما يلي :

---

(١) الصحاح (١٨٩٦/٥) لسان العرب (١١٩/١٢) ، مادة (حرم) .

(٢) الاستذكار (٣٨/١٧) .

(٣) المحلّى (١٢٤/١٠) .

(٤) أحكام القرآن للقرطبي (١٨٠/١٨) .

(٥) إعلام الموقعين (٦٤/٣) وزاد المعاد (٣٠٠/٥) .

(٦) كابن العربي في أحكام القرآن (١٨٤٧/٤) وابن حجر في فتح الباري (٥٢٤/٨) والعيني في عمدة القاري (٤٥٤/١٩) والشوكاني في نيل الأوطار (٢٦٤/٦) .

(٧) أحكام القرآن للقرطبي (١٨٠/١٨) .

(٨) أي في تحريمه كفارة يمين .

(٩) مصنف عبد الرزاق (٤٠١/٦) والمحلى (١٢٥/١٠) وفتح الباري (٥٢٤/٨) ونيل الأوطار (٢٦٥/٦) .

١ ـ قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ [التحريم: ١- ٢] .

٢ ـ ما رواه إبراهيم النخعي : (أن رجلاً أتى عمر رضي الله عنه وقد طلّق امرأته تطليقتين فقال: أنتِ عليّ حرام، فقال عمر رضي الله عنه: لا أردّها عليك) .[١]

وجه الدلالة من الآية والأثر : أن الآية دلّت على أنّ التحريم فيه كفارة يمين، وهذا يشمل الزوجة، وأثر عمر رضي الله عنه دلّ على أن التحريم طلاق، إذ الرجل طلّق طلقتين، ثم حرّم زوجته، فقال عمر رضي الله عنه: (لا أردّها عليك) . دلّ على وقوع الطلقة الثالثة .

٣ ـ ما ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : (نيّته في الحرام ما نوى إن لم يكن نوى طلاقاً، فهي يمين) .[٢]

وعنه قال : (الحرام إن نوى يميناً فهي يمين، وإن نوى طلاقاً فطلاق) .[٣]

وعنه قال : (الحرام إن نوى طلاقاً فهي واحدة وهو أملك برجعتها، وإن لم ينوِ طلاقاً فيمين يكفرها) .[٤]

٤ ـ ويمكن أن يستدلّ لهم أيضاً : أنه كناية في الطلاق ، فإذا نواه كان طلاقاً، وإذا لم ينوِه كان يميناً .

القول الثاني :

أنها يمين يكفرها كفارة يمين، وظاهره مطلقاً ولو نوى طلاقاً أو ظهاراً .

وهو قول طائفة من السلف منهم : عكرمة وعطاء ومكحول وقتادة والحسن وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير .[٥]

وحجة هذا القول ما يلي :

أنه الوارد عن جمع من الصحابة رضي الله عنهم.

---

(١) أخرجه البيهقي (٣٥٠/٧) . ولكنه منقطع، إبراهيم النخعي لم يدرك عمر رضي الله عنه. التلخيص الحبير (١٧٥٢) .

(٢) أخرجه البيهقي (٣٥١/٧) وفي معرفة السنن (٤٨٥/٥) .

(٣) أخرجه البيهقي (٣٥١/٧) .

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٤٠١/٦)، وأخرجه ابن أبي شيبة (٧٢/٥) .

(٥) مصنف عبد الرزاق (٣٩٩/٦) ومصنف ابن أبي شيبة (٧٤/٥ ـ ٧٥) والاستذكار (٤١/١٧) والمحلى (١٢٦/١٠) .

فقد روي : (أنّ أبا بكر وعمر وابن مسعود ﷺ قالوا : من قال لامرأته : هي عليّ حرام فليست بحرام، وعليه كفارة يمين) . (١)

لكنه ضعيف، ومنقطع . (٢)

ما روي من طريق عكرمة عن عمر ﷺ أنه قال : (هي يمين) . (٣)

لكنه منقطع ، عكرمة لم يدرك عمر ﷺ .

وروى عطاء عن عائشة رضي الله عنها قالت في الحرام : (يمين تكفر) . (٤)

وروى قبيصة بن ذؤيب قال : سألت زيد بن ثابت وابن عمر عمّن قال لامرأته : (أنتِ عليّ حرام) قالا جميعاً : عليه كفارة يمين . (٥)

وروى مجاهد أنَّ ابن مسعود ﷺ قال : (هي يمين يكفرها) . (٦)

وروى سعيد بن جبير أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقول : (إذا حرّم الرجل عليه امرأته فهي يمين يكفرها ، وقال : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ . [الأحزاب: ٢١] . (٧)

ونوقش الاستدلال بهذه الأدلة بأنها محمولة على ما إذا لم ينوِ الطلاق، أو الظهار، مع أن آثار الصحابة ﷺ مختلفة .

القول الثالث : أنه إن أراد بالتحريم طلقة ـ واحدة أو اثنتين ـ فيقع عليه واحدة بائنة ، لا يملك رجعتها وإن نوى طلاق الثلاث فثلاث ، وإن أراد الظهار فظهار ، وإن أراد الكذب فباطل، وإن أراد مجرد التحريم أو لم يُرد شيئاً فإيلاء .

وهو مذهب الحنفية . (٨)

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧٤/٥) .

(٢) التلخيص الحبير (١٧٥٢) .

(٣) أخرجه عبد الرزاق (١١٣٦٠) . وأخرجه ابن أبي شيبة (٧٣/٥) .

(٤) صحيح أخرجه ابن أبي شيبة (٧٣/٥) والدارقطني (١٦٣) والبيهقي في السنن الكبرى (٣٥١/٧) .

(٥) أخرجه ابن حزم في المحلى (١٢٥/١٠) ، وقال الحافظ في التلخيص (٤٣٥/٣) : سنده صحيح .

(٦) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (١١٣٦٦) بإسناد صحيح .

(٧) أخرجه البخاري (٤٩١١) في كتاب التفسير، (باب تفسير سورة التحريم) . ومسلم (١٤٧٣) في كتاب الطلاق ، (باب وجوب الكفارة على من حرّم امرأته) .

(٨) الاختيار (١٥٦/٣) وبدائع الصنائع (١٦٧/٣) ومجمع الأنهر (٤٤٥/١) وحاشية ابن عابدين (٤٣٤/٣) .

وعـــند مـــتأخري الـــحنفية : إذا لم يُرد شيئاً فطلاق، لكثرة الاستعمال والعرف فألحق بالصريح .

واحتجوا بما يلي :

١ ـ أنه يقع عليه طلقة واحدة بائنة إذا نوى بالتحريم طلقة أو طلقتين، أو أطلق، لأن التحريم من كنايات الطلاق، ولا تصحّ نية الثنتين لأنهما عدد محض، بخلاف نية الثلاث .

٢ ـ أن الحرمة نوعان : غليظة وخفيفة . فكانت نية الثلاث تعين بعض ما يحتمله اللفظ فيصح، وإذا نوى واحدة كانت واحدة بائنة، لأن اللفظ ينبئ عن الحرمة، واللفظ الرجعي لا يوجب الحرمة .

٣ ـ أنه إذا أراد بالتحريم الظهار فيلحقه الظهار، لأن في الظهار نوع حرمة .[١]

٤ ـ أنه إن أراد بالتحريم الكذب فباطل، لأنه نوى حقيقة كلامه، إذ حقيقته وصفها بالحرمة، وهي موصوفة بالحلِّ فكان كذباً .[٢]

٥ ـ أنه إن أراد التحريم أو لم يُرد شيئاً فإيلاء، لأن تحريم الحلال يمين، وقد حلف على زوجته فيكون إيلاءً .[٣]

ونوقش هذا الاستدلال من وجهين :

الوجه الأول : أن طلاق الثلاث والثنتين بدعي، فلا يصار إليه بإيقاع الطلاق الثلاث والثنتين بالتحريم، وفي الطلاق الرجعي نوع حرمة، والقاعدة الأصولية: تعلق اللفظ المطلق بأقل مسماه[٤]، فيلحقه طلاق رجعي بالتحريم .

الوجه الثاني : لا يسلم أن التحريم المطلق إيلاء، إذ الإيلاء أن يحلف على ترك وطء زوجته أكثر من أربعة أشهر .

القول الرابع : أنه طلاق ثلاث في المدخول بها، إلا إن نوى أقل فحسب نيته . وأمَّا غير المدخول بها فطلقة، إلا إن نوى أكثر فحسب نيته .

---

(١) أحكام القرآن للجصاص (٣٦٤/٣) وبدائع الصنائع (١٦٧/٣) وحاشية ابن عابدين (٤٣٤/٣) .

(٢) بدائع الصنائع (١٦٧/٣) وحاشية ابن عابدين (٤٣٤/٣) .

(٣) أحكام القرآن للجصاص (٣٦٤/٣) وبدائع الصنائع (١٦٧/٣) وحاشية ابن عابدين (٤٣٤/٣) .

(٤) أحكام القرآن لابن العربي (٨٤٨/٤) وشرح الكوكب المنير (٣٩٢/٣) .

وقيل : يلزمه واحدة بائنة، إلا إن نوى فحسب نيته .

وهذا المشهور عند المالكية .(١)

واحتجوا بما يلي :

١ ـ ما ورد عن علي ﷺ أنه قال : (إذا قال الرجل لامرأته : أنت عليّ حرام فهي ثلاث).(٢)

وعنه ﷺ أنه قال : (الخلية، والبرية، والبتة، والحرام ثلاثاً).(٣)

٢ ـ أن اللفظ لما اقتضى التحريم وجب أن يترتب عليه حكمه، ولا تحرم الزوجة إلا بالثلاث أو الواحدة البائنة إلا إن نوى فنيته تقيد لفظه .

وأمّا غير المدخول بها فالواحدة تبينها، إلا إن نوى أكثر، فنيته تقيد لفظه .

ونوقش من وجوه :

الوجه الأول : أن الآثار عن الصحابة ﷺ مختلفة، فيما يترتب على التحريم من طلاق أو ظهار، أو كفارة يمين .

الوجه الثاني : أن تطليق الزوجة أكثر من واحدة طلاق بدعي محرم، فلا يوقع الطلاق البدعي بالتحريم .

الوجه الثالث : أن المدخول بها يملك الزوج إبانتها بواحدة بائنة .(٤)

فأجابوا : أن الإبانة بالواحدة الموصوفة بأنها بائنة إبانة مقيدة، بخلاف التحريم فإن الإبانة به مطلقة، ولا يكون ذلك إلا بالثلاث .

ورُدَّ : بأن إبانة التحريم أعظم تقييداً من قوله : أنت طالق طلقة بائنة، فإن غاية البائنة أن تحرمها، وهذا قد صرح بالتحريم فهو أولى بالإبانة من قوله : أنت طالق طلقة بائنة .(٥)

---

(١) المدونة مع المقدمات (٣٢/٢) وأحكام القرآن لابن العربي (١٨٤٩/٤) وأحكام القرآن للقرطبي (١٨١/١٣) والتاج والإكليل (٢٧٦/٣) والشرح الكبير وحاشية الدسوقي عليه (١٣٥/٢) والشرح الصغير (١٣٤/١) وانظر المنتقى (٩/٤) والقوانين الفقهية (ص ١٥٢) وأسهل المدارك (ص ١٤٢) .

(٢) صحيح، أخرجه ابن أبي شيبة (٧٢/٥) وعبد الرزاق (٤٠٣/٦) ومالك في الموطأ (٥٥٢/٢) عن علي بلاغاً .

(٣) أخرجه البيهقي (٣٤٤/٧) .

(٤) زاد المعاد (٣٠٩/٥) .

(٥) المصدر السابق .

القول الخامس : إن نوى طلاقاً فعلى ما نوى من العدد، وإن نوى ظهاراً كان ظهاراً، وإن نوى الطلاق والظهار معاً أو متعاقبين بأن نوى أحدهما في أول اللفظ، والآخر في آخره، تخيّر أحدهما، وإن نوى التحريم أو أطلق ففيه كفارة يمين على الأظهر .

وهذا مذهب الشافعية .[١]

واحتجوا بما يلي :

١ ـ أنه إذا نوى الطلاق أو الظهار وقع ما نواه لأن كلاً منهما يقتضي التحريم فجاز أن يكنى عنه بالحرام، والكناية تقع بالنية .[٢]

٢ ـ أنه إذا نواهما معاً يتخير أحدهما، لأن الطلاق يزيل النكاح، والظهار يستدعي بقاءه، فلا يثبتان جميعاً .[٣]

٣ ـ أنه إذا نوى التحريم فعليه كفارة يمين، لما تقدم عن ابن عباس رضي الله عنهما .[٤]

ولا تحرم عليه لما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما : (أن رجلاً سأله فقال : إني جعلت امرأتي عليّ حراماً ، فقال : كذبت ليست عليك بحرام ، ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ [التحريم : ١].[٥]

القول السادس : أنه ظهار ولو نوى طلاقاً أو يميناً .

وهو مذهب الحنابلة[٦] ، وهو قول شيخ الإسلام رحمه الله وابن القيم والشنقيطي والشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ، لكن عند شيخ الإسلام وابن القيم والشيخ محمد ابن إبراهيم إن قصد اليمين فيمين، ويأتي[٧] .

---

(١) الأم (٢٧٩/٥) وروضة الطالبين (٢٨/٨) ومغني المحتاج (٢٨٢/٣) . وقيل : إذا نواهما معاً أو متعاقبين : يقع الطلاق، لأنه أقوى لإزالة الملك . وقيل : يقع الظهار : لأن الأصل بقاء النكاح .

(٢) مغني المحتاج (٢٨٢/٣) .

(٣) المصدر السابق (٢٨٣/٣) .

(٤) سبق تخريجه .

(٥) أخرجه النسائي (٣٤٢٠) في كتاب الطلاق ، (باب تأويل هذه الآية على وجه آخر) .

(٦) الشرح الكبير (٢٦٧/٢٢) والمحرر (٥٥/٢) والمبدع (٢٨٣/٧) .

(٧) مجموع الفتاوى (٢٩٥/٣٢ ، ٧٤/٣٣ ، ١١٧ ، ١٦٠ ، ١٦٧) وزاد المعاد (٣١٣/٥) وأضواء البيان (٥٣٩/٦) وفتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم (٧٨/١١) .

واحتجوا بما يلي :

١ ـ مـا ورد أن رجلاً أتى ابن عباس رضي الله عنهما فقال : إني جعلت امرأتي عليّ حراماً ، قال : كذبت ، ليست عليك بحرام ، ثم تلا : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ عليك أغلظ الكفارة عتق رقبة .[١]

وعنه رضي الله عنه قال : (في الحرام والنذر : عتق رقبة، أو صيام شهرين متتابعين، أو إطعام ستين مسكيناً).[٢]

ونوقش : بأنه مخالف لما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما، كما تقدم قريباً .

٢ ـ أنه صريح في التحريم فكان ظهاراً وإن نوى غيره، كقوله : أنت عليّ كظهر أمي .[٣]

ونوقش : بالمنع، بل إذا نوى غير الظهار كاليمين مثلاً، فإنه يقصد بذلك الحثّ أو المنع، أو التصديق والتكذيب، ولم يقصد التحريم، بخلاف قوله: أنت عليّ كظهر أمي فإنه صريح في الظهار .

٣ ـ أنه تحريم للزوجة بغير طلاق فوجبت به كفارة الظهار، كما لو قال : أنت علي كظهر أمي .[٤]

ونوقش : بما نوقش به الدليل المتقدم .

٤ ـ أنه لا يخرج عن كونه ظهاراً بنية الطلاق، كما لو قال : أنتِ عليّ كظهر أمي، ونوى به الطلاق، أو قال : أعني به الطلاق، فإنه لا يخرج بذلك عن الظهار عند الأكثرين، إلا على قول شاذ لا يلتفت إليه لموافقته ما كان الأمر عليه الأمر في الجاهلية من جعل الظهار طلاقاً، ونسخ الإسلام لذلك وإبطاله، فإذا نوى به الطلاق، فقد نوى ما عليه أهل الجاهلية عند إطلاق لفظ الظهار، وقد نوى ما لا يحتمله شرعاً، فلا تؤثر نيته

---

(١) أخرجه عبد الرزاق (٦/٤٠٤) والنسائي (٣٤٢٠) في كتاب الطلاق، (باب تأويل هذه الآية على وجه آخر) والبيهقي (٧/٣٥١) .

(٢) أخرجه عبد الرزاق (٦/٤٠٤) وإسناده صحيح . وأخرجه ابن حزم في المحلى (١٠/١٢٥) وصححه .

(٣) الشرح الكبير مع الإنصاف (٢٢/٢٦٧ ـ ٢٦٨) .

(٤) المصدر السابق .

في تغيير حكم الله الذي حكم به بين عباده .[١]

ونوقش : بوجود الفرق بين قوله : أنتِ عليّ كظهر أمي، فهو صريح في الظهار، فلو نوى به طلاقاً لم يقع، وأمَّا قوله : أنتِ علي حرام فمن الكنايات، والكناية تقيدها النية .

وأيضاً : قال ابن العربي : (الظهار حكم شرعي يختص بمعنى فاختص بلفظ، وهذا إنما يلزم لمن يرى مراعاة الألفاظ، ونحن نعتبر المعاني خاصة إلا أن يكون اللفظ تعبدياً .[٢]

٥ ـ أن الله تعالى لم يجعل للمكلف التحليل والتحريم وإنَّما ذلك إليه تعالى، وإنَّما جعل له مباشرة الأقوال والأفعال التي يترتب عليها التحريم، فإذا قال : أنت عليّ كظهر أمي، أو أنتِ عليّ حرام، فقد قال المنكر من القول والزور، وكذب على الله تعالى، فإنه لم يجعلها عليه كظهر أمه ولا جعلها عليه حراماً، فقد أوجب بهذا القول المنكر والزور أغلظ الكفارتين وهي كفارة الظهار .[٣]

ونوقش هذا الاستدلال : بوجود الفرق بين قوله : أنتِ علي كظهر أمي ، وبين قوله : أنتِ عليّ حرام، كما تقدم في مناقشة الدليل السابق .

القول السابع : أنها ثلاث تطليقات مطلقاً ، وظاهره سواء كانت مدخولاً بها أم لا .

وبه قال الحسن البصري، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى .[٤]

وحجة هذا القول :

١ ـ ما ورد عن علي ﷺ أنه قال : (إذا قال الرجل لامرأته : أنت عليّ حرام، فهي ثلاث)[٥] .

وورد عن علي ﷺ أنه كان يجعل الخلية والبرية والبتة والحرام ثلاثاً .[٦]

---

(١) انظر : مجموع الفتاوى (١٦٠/٣٣ ، ١٦٧) وزاد المعاد (٣١٢/٥) .

(٢) انظر : أحكام القرآن لابن العربي (١٨٤٩/٤) .

(٣) إعلام الموقعين (٦٤/٣) .

(٤) مصنف عبد الرزاق (٤٠٣/٦) ومصنف ابن أبي شيبة (٧٤/٥) والاستذكار (٣٦/١٧) والمحلى (١٢٤/١٠) .

(٥) صحيح، أخرجه ابن أبي شيبة (٧٢/٥) . وعبد الرزاق (٤٠٣/٦). وأخرجه مالك في الموطأ (٥٥٢/٢) عن علي بلاغاً .

(٦) أخرجه البيهقي (٣٤٤/٧) .

وعنه قال : (الخلية، والبرية، والبتة، والبائن، والحرام، إذا نوى فهي بمنزلة الثلاث) [١] .

ونوقش : بأنه خلاف الوارد عن علي رضي الله عنه بالوقف . [٢]

٢ ـ ما ورد عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه كان يقول : (في الحرام ثلاث) [٣] .

ونسبه ابن حزم لزيد وابن عمر رضي الله عنهم معلقاً . [٤]

ونوقش : بأنه خلاف الوارد عنهما بأن في التحريم يميناً . [٥]

٣ ـ أن الصحابة رضي الله عنهم أفتوا في الخلية والبرية بأنها ثلاث . قال أحمد : (هو عن علي وابن عمر صحيح) [٦]،ومعلوم أن غاية الخلية والبرية أن تصير إلى التحريم، فإذا صرّح بالغاية فهي أولى أن تكون ثلاثاً، ولأن المحرم لا يسبق إلى وهمه تحريم امرأته بدون الثلاث، فكأن هذا اللفظ صار حقيقة عرفية في إيقاع الثلاث . [٧]

ونوقش : أن ما ورد عن الصحابة رضي الله عنهم ليس إجماعاً .

وأيضاً : فإن جمع الثلاث طلاق بدعي محرم شرعاً فلا يصار إليه .

وأيضاً : فإن الطلقة الواحدة فيها نوع تحريم، والقاعدة الأصولية : (أن اللفظ المطلق يتعلق بأقل مسماه) .

٤ ـ أن الواحدة لا تحرم إلا بعوض، أو قبل الدخول، أو عند تقييدها بكونها بائنة عند من يراه، فالتحريم بها مقيد، فإذا أطلق التحريم ولم يقيد انصرف إلى التحريم المطلق الذي يثبت قبل الدخول أو بعده، وبعوض وغيره، وهو الثلاث . [٨]

---

(١) أخرجه البيهقي (٣٤٤/٧)، وقال: (والرواية الأولى أصح إسناداً) . وفي الجوهر النقي (٣٥٢/٧) : (وظاهر هذا يقتضي صحة الثانية.... وقال صاحب الاستذكار : الصحيح عن علي : أنها ثلاث) .

(٢) يأتي تخريجه في القول التاسع .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة (٧٣/٥) عن زيد بن ثابت . وإسناده صحيح . ونسبه في المحلى (١٢٤/١٠) لزيد بن ثابت وابن عمر رضي الله عنهم معلقاً . وعلّق البيهقي في سننه (٣٥١/٧) : عن علي وزيد رضي الله عنهما أنهما قالا : (في البرية، والبتة، والحرام أنها ثلاث ثلاث).

(٤) المحلى (١٢٥/١٠) .

(٥) زاد المعاد (٣٠٣/٥) .

(٦) انظر هذه الآثار عن الصحابة رضي الله عنهم في مصنف عبد الرزاق (٣٥٦/٦) وابن أبي شيبة في مصنفه (٧٣/٥) وسعيد بن منصور في سننه (١٦٦٦) والبيهقي في سننه (٣٤٤/٧) وابن حزم في المحلى (١٨٨/١٠ ، ١٩٢) .

(٧) زاد المعاد (٣٠٨/٥) .

(٨) زاد المعاد (٣٠٨/٥) .

ونوقش : بعد التسليم كما في مناقشة الدليل السابق .

القول الثامن : أنه لغو باطل لا يترتب عليه شيء .

وبه قال مسروق، وأبو سلمة بن عبد الرحمن، وعطاء، والشعبي، وهو قول الظاهرية .[1]

ودليلهم ما يلي :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ ﴾. [النحل : ١١٦] .

٢ ـ قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾. [التحريم : ١] .

وأن سبب نزولها : ما رواه أنس ﷺ: أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرّمها على نفسه، فأنزل الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾.[2]

والمحرم شرعاً ليس عليه أمر الله ولا رسوله فيكون لغواً لا يترتب عليه أثره .

٣ ـ ما روته عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « **من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ** ».[3]

وتحريم الزوجة عمل ليس عليه أمر الله ﷻ، ولا أمر رسوله ﷺ.

ونوقش الاستدلال بهذه الأدلة :

أنّ كون الشيء محرماً ليس عليه أمر الله ولا أمر رسوله ﷺ لا يلزم منه عدم ترتب أثر عليه، فالظهار محرم ليس عليه أمر الله ولا رسوله ﷺ، ويترتب عليه أثره من تحريم قربان المرأة حتى يُكفِّر، وإيجاب الكفارة، وكذا الإيلاء محرّم ويترتب عليه أثره من ضرب المدة، وإيجاب كفارة اليمين بالحنث .

---

(١) مصنف عبد الرزاق (٤٠٢/٦) ومصنف ابن أبي شيبة (٧٤/٥) والاستذكار (٤٥/١٧) .

(٢) أخرجه النسائي (٣٩٥٩) في كتاب عشرة النساء، (باب الغيرة) . وصححه الحافظ في الفتح (٥٠٣/٨ ، ٣٢٨/٩) .

(٣) ذكره البخاري معلقاً في كتاب البيوع، (باب النجش، ومن قال: لا يجوز ذلك البيع) . وأخرجه (٢٦٩٧) في كتاب الصلح، (باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود) . بلفظ : « **من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ** » . ومسلم (١٧١٨) في كتاب الأقضية، (باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور) .

٤ ـ ما رواه سعيد بن جبير أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقول : (إذا حرّم امرأته ليس بشيء لكم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة)[١] .

ونوقش : بأن المراد عدم تحريم العين، دون ما يترتب على ذلك من كفارة، وغير ذلك .[٢]

٥ ـ أنه لا فرق بين تحريم الحلال، وتحليل الحرام، وكما أن هذا الثاني لغو لا أثر له، فكذلك الأول .[٣]

ونوقش : بأن هذا مسلم من جهة تحريم العين، أمّا من جهة ترتب أثر هذا التحريم من كفارة وغيرها فغير مسلم .

٥ ـ أن ما سوى هذا القول أقوال مضطربة متعارضة يردّ بعضها بعضاً، فلا تحرم الزوجة بشيء منها بغير برهان من الله ورسوله ﷺ، فنكون قد ارتكبنا أمرين : تحريمها من الأول، وإحلالها لغيره، والأصل بقاء النكاح حتى تجمع الأمة، أو يأتي برهان من الله ورسوله ﷺ على زواله، فيتعين القول به .[٤]

ونوقش : بأن تعارض أقوال العلماء لا يلزم منه إبطال أثره إذا دلّ على ذلك نصّ .

القول التاسع : التوقف .

وهو مروي عن علي رضي الله عنه.

فقد روى الشعبي عنه أنه قال : (في الرجل يجعل امرأته حراماً، قال : يقولون : إن علياً رضي الله عنه جعلها ثلاثاً، ما قال رضي الله عنه هذا، إنما قال : لا أحلها ولا أحرمها)[٥] .

ونوقش هذا : بأنه مخالف لما ورد عن علي رضي الله عنه من أنها ثلاث .

قال ابن عبد البر : (الصحيح عن علي خلاف ما قال الشعبي من وجوه يطول ذكرها، أنه كان يرى الحرام ثلاثاً لا تحل له إلا بعد زوج)[٦] .

وعلل ابن القيم لهذا القول : أن التحريم ليس بطلاق، والزوج لا يملك تحريم

---

(١) أخرجه البخاري (٥٢٦٦) في كتاب الطلاق، (باب : ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١]) .

(٢) انظر : سبل السلام (٣٢١/٣) .

(٣) زاد المعاد (٣٠٨/٥) .

(٤) المصدر السابق .

(٥) صحيح . أخرجه عبد الرزاق (٤٠٣/٦) وابن أبي شيبة (٧٥/٥) . وسعيد بن منصور (١٦٧٦) . والبيهقي (٣٥١/٧) .

(٦) الاستذكار (٣٨/١٧) .

الحلال إنّما يملك السبب الذي تحرم به وهو الطلاق، وهذا ليس بصريح في الطلاق، ولا هو مِمَّا له عرف الشرع في تحريم الزوجة فاشتبه الأمر فيه .[1]

ونوقش : بأن التحريم من كنايات الطلاق فيقع مع النية ، وإلا لزمته كفارة يمين كما تقدم في الأدلة .

الترجيح : يترجح ـ والله أعلم ـ قول من قال تلزمه كفارة يمين، إلاّ إن قصد الطلاق، أو الظهار فيقع ما نواه، إذ تحريم الزوجة من كنايات الطلاق، والطلاق يقع بالكناية مع النية .

قال ابن القيم : (وقد أوقع الصحابة ﷺ الطلاق بأنتِ حرام، وأمرك بيدك، واختاري، ووهبتك، وأنت خلية، وقد خلوت مني، وأنت برية، وقد أبرأتك، وأنت مبرأة، وحبلك على غاربك)[2] .

وقال الشوكاني : (وأمَّا من أراد طلاقها بذلك اللفظ ـ أي : تحريمها ـ فليس في الأدلة ما يوجب اختصاص الطلاق بألفاظ مخصوصة وعدم جوازه بما سواها، وليس في قوله تعالى : ﴿ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ ﴾ [البقرة : ٢٣٠] ما يقضي بانحصار الفرقة في لفظ الطلاق، وقد ورد الإذن بما عداه من ألفاظ الفرقة، كقوله ﷺ لابنة الجون : « **الحقي بأهلك** ».[3]

وأيضاً فإن الله تعالى قال : ﴿ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ ﴾ [البقرة : ٢٢٩] وظاهره : أنه لو قال : سرَّحْتك لكفى في إفادة معنى الطلاق، وقد ذهب جمهور أهل العلم إلى جواز التجوز لعلاقة مع قرينة في جميع الألفاظ إلا ما خُصَّ، فما الدليل على امتناعه في باب الطلاق ؟!)[4]

وكذا إن نوى الظهار وقع ما نواه، لما علل به شيخ الإسلام وابن القيم .

المبحث الثاني : أن يكون التحريم بقصد اليمين .

وذلك مثل أن يقول : إن لم أفعل كذا فزوجتي عليّ حرام، أو إن فعلت كذا

---

(١) إعلام الموقعين (٣/٦٤) .

(٢) زاد المعاد (٣/٦٤) .

(٣) أخرجه البخاري (٥٢٥٤) في كتاب الطلاق، (باب من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق) .

(٤) نيل الأوطار (٦/٢٦٥) .

فزوجتي عليّ حرام، أو إن لم يكن هذا الخبر صدقاً فزوجتي عليّ حرام، أو إن كان كذباً فزوجتي عليّ حرام، وهكذا، يقصد الحثّ أو المنع، والتصديق أو التكذيب .

فاختلف أهل العلم في ذلك على عدة أقوال :

القول الأول : أنه يمين تلزمه كفارة يمين بالحنث فيها .

وهذا اختيار شيخ الإسلام[١] وابن القيم[٢] والشيخ محمد بن إبراهيم[٣] .

وهذه المسألة من المسائل التي خالف فيها شيخ الإسلام الأئمة الأربعة فهو يفرق بين التعليق المحض، كقوله: إذا دخل شهر شعبان فأنت علي حرام، وبين التعليق القسمي كما في المثال السابق .

وحجة هذا القول :

أن ألفاظ الطلاق والظهار والعتاق والنذر والإيجاب والتحريم، إذا قصد بتعليقها الحثّ أو المنع، أو التصديق، أو التكذيب يمين، ويدلّ لهذا ما يلي :

١ ـ قوله تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ ۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ ﴾[المائدة : ٨٩] .

قال ابن القيم : (فهذا صريح في أن كل يمين منعقدة، فهذه كفارتها... فالواجب تحكيم هذا النص العام، والعمل بعمومه حتى يثبت إجماع الأمة إجماعاً متيقناً على خلافه).[٤]

٢ ـ قوله تعالى : ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ ﴾ [التحريم : ٢] . وهذه الآية متناولة لكل يمين منعقدة يحلف بها المسلمون من غير تخصيص إلا بنصّ أو إجماع .[٥]

قال شيخ الإسلام : (وذكره سبحانه بصيغة الخطاب للأمة بعد تقدم الخطاب بصيغة الإفراد للنبي ﷺ، مع علمه سبحانه بأن الأمة يحلفون بأيمان شتى، فلو فرض يمين واحدة ليس لها تحلة لكان مخالفاً للآية... فإن قيل : المراد بالآية اليمين بالله، فإن هذا

(١) مجموع الفتاوى (٣٣/١٦٠ ، ٧٤) .

(٢) انظر : زاد المعاد (٣/٦٤) وإعلام الموقعين (١/٣٨٢) .

(٣) فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم (١١/٧٨) .

(٤) إعلام الموقعين (١/٣٨٢) .

(٥) إعلام الموقعين (١/٣٨٢) .

هــو المــفهوم من مطلق اليمين....؟ فيقال : لفظ اليمين شمل هــذا كــله بـدليل استعمال النبي ﷺ والصحابة ﷺ والعلماء اسم اليمين في هذا كله كقوله ﷺ: « **النذر حلف** ».[١] ، وقول الصحابة ﷺ لمن حلف بالهدي والعتق كفّر عن يمينك ...) .[٢]

٣ ـ حديث أبي موسى ﷺ أن النبي ﷺ قال : « **إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير وتحللتها** ». وفي رواية : « **إلا كفّرت عن يميني وأتيت الذي هو خير** ».[٣]

قال شيخ الإسلام : (فهذه نصوص رسول الله ﷺ أنه أمر من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها أن يكفّر عن يمينه ويأتي الذي هو خير، ولم يفرق بين الحلف بالله أو النذر ونحوه)[٤] . ـ كاليمين بالإيجاب والتحريم ـ .

٤ ـ ما رواه سعيد بن المسيب : أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث، فسأل أحدهما صاحبه القسمة، فقال : إن عدت تسألني القسمة فكل مالي في رتاج الكعبة[٥]، فقال عمر : إن الكعبة غنية عن مالك كفّر عن يمينك وكلّم أخاك، سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **لا يمين عليك ولا نذر في معصية الربّ ولا في قطيعة الرحم وفيما لا يملك** ».[٦]

قال شيخ الإسلام : (فهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أمر هذا الذي حلف بصيغة الشرط ونذر نذر اللجاج والغضب بأن يكفر يمينه، وأن لا يفعل ذلك المنذور، واحتج بما سمعه من النبي ﷺ أنه قال: « **لا يمين عليك ولا نذر في معصية الرب، ولا في قطيعة الرحم، وفيما لا يملك** »، ففهم من هذا أن من حلف بيمين، أو نذر على معصية،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (١٤٩/٤ ، ١٥٦) ولفظه : « **إنّما النذر يمين كفارتها كفارة يمين** » وفي إسناده ابن لهيعة . وفي صحيح مسلم (١٦٤٥) في كتاب النذر، (باب في كفارة النذر) عن عقبة بن عامر ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « **كفارة النذر كفارة يمين** » .

(٢) مجموع الفتاوى (٢٦٨/٣٥ ـ ٢٧١) .

(٣) أخرجه البخاري (٦٦٢٣) في كتاب الأيمان والنذور ، (باب قول الله تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾). ومسلم (١٦٥٤) في كتاب الأيمان ، (باب النهي عن الإصرار على اليمين).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٧٦/٣٥) .

(٥) في المصباح (٢١٨/١) : الرِّتاج ـ بالكسر ـ : الباب العظيم، والباب المغلق أيضاً، وجعل فلان ماله في رتاج الكعبة، أي نذره هدياً، وليس المراد نفس الباب .

(٦) أخرجه أبو داود (٣٢٧٢) في كتاب الأيمان والنذور . وقال الألباني في ضعيف سنن أبي داود : (ضعيف الإسناد) .

أو قطيعة فإنه لا وفاء عليه في ذلك النذر، وإنّما عليه الكفارة، كما أفتاه عمر، ولولا أن هـذا الـنذر كـان عنده يميناً لم يقل له: كفر عن يمينك، وإنّما قال ﷺ: « **لا يمين ولا نذر** »، لأن اليمين ما قصد بها الحضّ أو المنع، والنذر ما قصد به التقرب، وكلاهما لا يوفى به في المعصية والقطيعة.

وفي هذا الحديث دلالة أخرى، وهو أن قول ﷺ: « **لا يمين ولا نذر في معصية الرب، ولا في قطيعة الرحم** » ، يعم جميع ما يسمى يميناً أو نذراً، سواء كانت اليمين بالله أو كانت بوجوب ما ليس بواجب من الصدقة أو الصيام أو الحج أو الهدي، أو كانت بتحريم الحلال كالظهار والطلاق والعتاق . ومقصود النبي ﷺ إمَّا أن يكون نهيه عن المحلوف عليه من المعصية والقطيعة فقط، أو يكون مقصوده مع ذلك لا يلزمه ما في اليمين والنذر من الإيجاب والتحريم، وهذا الثاني هو الظاهر، لاستدلال عمر بن الخطاب به، فإنه لولا أن الحديث يدلّ على هذا لم يصح استدلال عمر بن الخطاب ﷺ على ما أجاب به السائل من الكفارة دون إخراج المال في كسوة الكعبة) .[١]

٥ ـ ما رواه أبو رافع أن مولاةً له أرادت أن تفرّق بينه وبين امرأته فقالت : هي يوماً يهودية، ويوماً نصرانية، وكل مملوك لها حر إن لم تفرق بينهما، فسألت عائشةَ وابنَ عباس وحفصةَ وأمَّ سلمة ﷺ، فكلهم قال لها : أتريدين أن تكوني مثل هاروت وماروت ؟ فأمروها أن تكفّر عن يمينها وتخلي بينهما .[٢]

قال ابن القيم : (وصحّ عن ابن عمر وعائشة وأم سلمة أمّي المؤمنين أنهم جعلوا في قول ليلى بنت العجماء ـ كل مملوك لها حر، وكل مالٍ هَدْيٌ، وهي يهوديةٌ ونصرانيةٌ إن لم تطلق امرأتك ـ كفارة يمين واحدة) .[٣]

٦ ـ قال شيخ الإسلام : (... وإذا كان كذلك فالحلف بالنذر والطلاق ونحوهما هو حلف بصفات الله، فإنه إذا قال: إن فعلت كذا فعلي الحج، فقد حلف بإيجاب الحج

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٦٨/٣٥) .

(٢) رواه عبد الرزاق في مصنفه (١٦٠٠٠) في كتاب الأيمان والنذور . والبيهقي (٦٦/١٠) في كتاب الأيمان . ويُعرفُ هذا بحديث ليلى بنت العجماء، وله طرق كثيرة، في بعضها زيادة وفي بعضها نقص، وذكر له ابن القيم نحواً من عشرة طرق نفى بها أن يكون في الحديث علة، أو له معارض، وأن ما عارضه معلول، وحديث ليلى هذا أشهر إسناداً وأصحّ. وانظر : إعلام الموقعين (٥٦/٤ ـ ٥٨) .

(٣) مصنف عبد الرزاق (٤٨٦/٨) وسنن الدارقطني (١٦٤/٤) وسنن البيهقي (٦٦/١٠) ومعرفة السنن والآثار (١٩١/١٤) .

عليه، وإيجاب الحج حكم من أحكام اللّه تعالى وهو من صفاته، وكذا لو قال: فعلي تحرير رقبة، وإذا قال: فامرأتي طالق، وعبدي حر، فقد حلف بإزالة ملكه الذي هو تحريمه عليه، والتحريم من صفات اللّه، كما أن الإيجاب من صفات اللّه) .

٧ ـ (أن الاعتبار في الكلام بمعنى الكلام لا بلفظه، وهذا الحالف ليس مقصوده قربة للّه، وإنَّما مقصوده الحضّ على الفعل أو المنع، وهذا معنى اليمين، وإذا علّق الحالف الحضّ والمنع باللّه تعالى أجزأته الكفارة فلأن تجزئه إذا علق به وجوب عبادة أو تحريم مباح بطريق الأولى، لأنه إذا علقه باللّه ثم حنث كان موجب حنثه أنه قد هتك إيمانه باللّه حيث لم يفِ بعهده، وإذا علّق به وجوب فعل أو تحريمه فإنّما يكون موجب حنثه ترك واجب أو فعل محرم، ومعلوم أن الحنث الذي موجبه خلل في التوحيد أعظم مِمَّا موجبه معصية من المعاصي...) .[1]

القول الثاني : أن حكم الحلف بتحريم الزوجة حكم قوله : أنت عليّ حرام، ولا فرق، وقد تقدم بيان ذلك .

وهذا قول جمهور أهل العلم .

استدلّ الجمهور بالأدلة الآتية :

١ ـ عمومات أدلة وقوع الطلاق والظهار، كقوله تعالى : ﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ﴾ [البقرة : ٢٢٩]، وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ [الطلاق : ١] . وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗا ﴾ [المجادلة : ٢] .

وهذا يشمل ما إذا حرم زوجته بنية الطلاق، أو الظهار، سواء كان هذا التحريم معلقاً بقصد الحثّ أو المنع ... أو غير معلّق .

ونوقش هذا الاستدلال : بأن هذه العمومات خصّ منها ما إذا قصد بتعليقه الحثّ أو المنع أو التكذيب أو التصديق .

٢ ـ ما ورد عن أبي ذر ﷺ أنه قال لامرأته وقد ألحت عليه في سؤاله عن ليلة

(١) مجموع الفتاوى (٢٥٧/٣٥) .

القدر : (إن عدت تسألين عن ليلة القدر فأنت طالق) .[١]

وعمومه يشمل وقوع الطلاق نواه، أو نوى المنع، ونحوه .

ونوقش : بضعفه .[٢]

٣ ـ ما رواه نافع قال : طلّق رجل امرأته البتة إن خرجت، فقال ابن عمر رضي الله عنهما : إن خرجت فقد بتت منه، وإن لم تخرج فليس بشيء .[٣]

٤ ـ ما رواه الثوري عن ابن مسعود ﷺ في رجل قال لامرأته : إن فعلتِ كذا وكذا فأنت طالق، قال : هي واحدة وهو أحقّ بها .[٤]

ونوقش : بأنه منقطع .[٥]

قال ابن القيم : (اليمين بالطلاق والعتاق إلزام الحالف بهما إذا حنث بطلاق زوجته، وعتق عبده مِمَّا حَدَثَ الإفتاء به بعد انقراض عصر الصحابة، فلا يحفظ عن صحابي في صيغة القسم إلزام الطلاق به أبداً، وإنما المحفوظ إلزام الطلاق بصيغة الشرط والجزاء الذي قصد به الطلاق عند وجود الشرط ... فهذا لا ينازع فيه إلاّ من يمنع وقوع الطلاق المعلق بالشرط مطلقاً، وأمَّا مَن فصل بين القسم المحض والتعليق الذي يقصد به الوقوع فإنه يقول بالآثار المروية عن الصحابة في الوقوع وعدمه، ولا يؤخذ ببعض فتاويهم ويُتْرَك بعضها ...) .[٦]

٥ ـ أنه خلاف القياس على الشرط والجزاء المقصودين كقوله : إن أبرأتِني فأنت طالق .[٧]

ونوقش : أنه قياس مع الفارق، لأن الحلف بالطلاق ونحوه لم يقصد به وقوع الجزاء، وإنَّما قصد به الحثّ أو المنع ... وأمَّا الشرط المقصود ولم يرد به الحثّ أو المنع ... فقد قصد فيه الجزاء .

---

(١) أخرجه النسائي (٢/٢٧٨) في كتاب الاعتكاف . والبيهقي في السنن (٤/٣٠٧) .

(٢) المجموع (٦/٤٧٣) .

(٣) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم في الطلاق، (الطلاق في الإغلاق والكره تحت بابه) رقم : (١١) .

(٤) أخرجه البيهقي (٧/٨٩) .

(٥) إعلام الموقعين (٣/٥٤) .

(٦) إعلام الموقعين (٣/٥٤) .

(٧) إعلام الموقعين (٢/١٣٣) .

٦ ـ أنه حكم معلق بشرط فوجب عند ثبوته كسائر الأحكام .[1]

ونوقش هذا الاستدلال : بعدم التسليم، لوجود الدليل على عدم الإلحاق .

الترجيح :

الراجح ـ والله أعلم ـ ما اختاره شيخ الإسلام رحمه الله من أنّ الحلف بالتحريم إذا قصد به الحثّ أو المنع، أو التصديق أو التكذيب، يمين فيه كفارة يمين، لقوة دليله، والإجابة عن أدلة المخالفين .

خاتمة في نتائج البحث :

بعد الدراسة السابقة لكلام أهل العلم في مسألة تحريم الزوجة أخلص إلى النتائج التالية :

١ ـ من حرّم زوجته وقع ما نواه من طلاق أو ظهار، وإلاّ لزمته كفارة يمين .

٢ ـ إذا حلف بتحريم زوجته فيمين مكفرة مطلقاً، إذا حنث في يمينه، وإلاّ لم يلزمه شيء .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلّى الله وسلّم وبارك على نبيّنا محمد وآله وصحبه .



---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٥/٢٥٤) .



البحث الدعوي (١)

العلماء ودورهم في قيادة الأمة

فضيلة الشيخ الدكتور بشار بن حسين العجل ۞

مُقَدِّمَة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه .

أما بعد ،

فإن العلم له مكانة جليلة في الإسلام، وبه يرفع الناس ويعرفون، وهو الطريق الموصل إلى عبادة الله وخشيته .

والناس بغير علم يفسدون أكثر ممّا يصلحون، لهذا كان لا بُدَّ منه في أيّ عمل يقوم به الإنسان ليكون على نور وبيان .

ولذا حثّ الإسلام على تعلم العلم النافع والحرص عليه، بل لقد أمر الله تعالى بتعلم العلم قبل القول والعمل، كما قال تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ [محمد : ١٩] .

قال البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه : (باب العلم قبل القول والعمل، لقول الله تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ فبدأ بالعلم . وأن العلماء هم ورثة الأنبياء، ورّثوا العلم، من أخذه أخذ بحظ وافر، ومن سلك طريقاً يطلب به علماً سهّل الله له طريقاً إلى الجنة). [١]

۞ إمام وخطيب مسجد النعيم في جديدة القيطع - عكار - لبنان . ومدرس في معهد الإمام البخاري، ومعهد طرابلس للعلوم الشرعية، والمعاهد الجامعية في طرابلس . حائز على درجة الماجستير من جامعة الجنان طرابلس في الفقه المقارن، ودرجة الدكتوراه من نفس الجامعة.

(١) صحيح البخاري في كتاب العلم، (باب العلم قبل القول والعمل) .

ولأهمية العلم وفضله، فُضِّل أهله وشُرِّفوا، وهم علماء الأمة، لأن العلم إنّما يتلقى ويؤخذ عن العلماء .

فالعلماء يقومون بتعليم العلم وتبليغه للناس، ويجب على الناس أن يتعلموا منهم، ويتقبلوا إرشاداتهم وتعليماتهم .

وبناء عليه، فإن العلماء لهم دور عظيم في قيادة الأمة وتوجيهها الوجهة الصحيحة السليمة .

لذا أحببت أن أكتب هذه الصفحات القليلة بحثاً متواضعاً ووضعت له عنواناً : العلماء ودورهم في قيادة الأمة .

وكانت خطة البحث على النحو التالي :

- المقدمة ومن ثم خمسة فصول :
- الفصل الأول : من هم العلماء .
- الفصل الثاني : فضل العلماء .
- الفصل الثالث : العلماء والعمل .
- الفصل الرابع : العلماء والفتيا .
- الفصل الخامس : العلماء والأمراء .
- الخاتمة .

وأسأل الله عزَّ وجلّ أن يوفقني إلى كل خير، وإلى ما فيه الصلاح . هذا وما كان في هذه الصفحات من صواب فمن الله ومن فضله ومَنّه، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي وأستغفر الله .

الفصل الأول : من هم العلماء :

العلماء هم : العارفون بشرع الله، المتفقهون في دينه، والعاملون بعلمهم على هدى وبصيرة، الذين وهبهم الله الحكمة .

والعلماء هم : الذين جعل الله عزَّ وجلّ عماد الناس عليهم في الفقه والعلم وأمور الدين والدنيا .[١]

---

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن للطبري (٣/٣٢٧) .

والعلماء هم : فقهاء الإسلام، ومن دارت الفتيا على أقوالهم بين الأنام، الذين خُصّوا باستنباط الأحكام، وعنوا بضبط قواعد الحلال والحرام .[١]

كيف يعرف العلماء :

يعرف العلماء بأمور كثيرة منها ما يأتي :

١ ـ يعرفون بعلمهم : فالعلم هو الميزة التي تميز العلماء عن غيرهم .

٢ ـ يعرفون برسوخ أقدامهم في مواطن الشبه، لأنهم أهل اليقين الراسخ الذي اكتسبوه بالعلم .

يقول ابن القيم رحمه الله : (إن الراسخ في العلم لو وردت عليه من الشبه بعدد أمواج البحر ما أزالت يقينه ولا قدحت فيه شكاً، لأنه قد رسخ في العلم فلا تستفزه الشبهات، بل إن وردت عليه ردّها حرس العلم وجيشه مغلولة مغلوبة) .[٢]

٣ ـ يعرفون بدعوتهم إلى الله تعالى وبذلهم الأوقات والجهود في سبيل الله .

٤ ـ يعرفون بنسكهم وخشيتهم لله تعالى لأنهم أعرف الناس بالله، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] .

قال ابن كثير رحمه الله: (إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر) .[٣]

قال الحسن البصري رحمه الله : (العالم من خشي الرحمن بالغيب، ورغب فيما رغب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه) .[٤]

٥ ـ العلماء يعرفهم الناس، فأيّما رجل رأيت المعتبرين في الأمة وجمهورها من أهل الحق قد اعتبروه عالماً، ورأوا له ريادته وعلمه فهو عالم .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (من له في الأمة لسان صدق عام بحيث

---

(١) إعلام الموقعين لابن القيم (٢٦٠/١) .

(٢) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١٤٠/١) .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧٤٧/٣) .

(٤) نفس المرجع (٧٤٧/٣) .

يثنى عليه ويُحمد في جماهير أجناس الأمة، فهؤلاء أئمة الهدى ومصابيح الدجى) .[١]

٦ ـ ويعرف العالم بشهادة مشايخه له بالعلم .

قال الإمام مالك رحمه الله : (لا ينبغي لرجل يرى نفسه أهلاً لشيء حتى يسأل من كان أعلم منه، وما أفتيت حتى سألت ربيعة ويحيى بن سعيد فأمراني بذلك، ولو نهياني لانتهيت) .[٢]

٧ ـ ويعرف العلماء بدروسهم وفتاويهم ومؤلفاتهم .

قال الإمام أبو طاهر السلفي عن الإمام الخطابي : (وأما أبو سليمان الشارح لكتاب أبي داود، فإذا وقف منصف على مصنفاته واطلع على بديع تصرفاته في مؤلفاته تحقق إمامته وديانته فيما يورده وأمانته) .[٣]

هذه بعض الصفات التي يعرف بها العلماء باختصار ولو وقف المتعلم على صفاتهم وما يعرفون به لوجدها كثيرة جداً .

العلماء والمناصب :

هل المناصب ونحوها تعتبر دليلاً على العلم أو لا ؟

إن المناصب ليست دليلاً على العلم، لأن العلماء لا يحددون ويختارون عن طريق الانتخاب، ولا عن طريق التعيين الوظيفي .

فكم من عالم في تاريخ الأمة تصدر وعلا ذكره، وأصبح إماماً للأمة كلها وهو لم يعرف المناصب .

وكم من شيخ نال أعلى المناصب وليس من أهل العلم المشهود لهم، وصدر وليس من أهل التصدير في المجالس .

يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله : (المنصب والولاية لا يجعل من ليس عالماً مجتهداً عالماً مجتهداً، ولو كان الكلام في العلم والدين بالولايات والمنصب لكان الخليفة والسلطان أحق بالكلام في العلم والدين) إلى أن قال رحمه الله : (ولا يلزم الرعية حكمه في ذلك بقول دون قول إلا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فمن هو دون

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٤٣/١١) .

(٢) صفة الفتوى والمستفتي لابن حمدان (ص ٧) .

(٣) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢٥/١٧) .

السلطان في الولاية أولى بأن لا يتعدى طوره) .[١]

ولا أعني بذلك أن كل من تبوأ منصباً ليس بعالم، بل يوجد من العلماء الأفاضل العدد الكبير من نال منهم المناصب في الدنيا، ولكن أردت أن أبيّن وأوضح أن المناصب ليست بدليل على العلم .

التفريق بين العلماء والخطباء والوعاظ :

ممّا اشتهر بين عامة الناس ظنهم أن كل خطيب وواعظ وعظ الناس فهو من العلماء، وليس كذلك .

ولا أعني بهذا أن كل الخطباء والوعاظ ليسوا بعلماء، بل إن من الخطباء علماء أفذاذاً، بل قد يكون الواحد منهم من الأئمة الكبار والعلماء المقتدى بهم .

عن أبي ذر ﷺ مرفوعاً قال: (إنكم اليوم في زمان كثير علماؤه، قليل خطباؤه، من ترك عُشر ما يعرف فقد هوى، ويأتي من بعد زمان كثير خطباؤه، قليل علماؤه، من استمسك بعشر ما يعرف فقد نجا) .[٢]

إن من العلماء من لم يبرع بالخطابة والوعظ أيضاً، وهذا من الواقع والمشاهد .

وقال ابن الجوزي رحمه الله : (كان الوعاظ في قديم الزمان علماء وفقهاء) ثم قال : (ثم خسّت هذه الصناعة فتعرض لها الجهال، فبعد عن الحضور وعندهم المميزون من الناس، وتعلق بهم العوام والنساء فلم يتشاغلوا بالعلم، وأقبلوا على القصص وما يعجب الجهلة وتنوعت البدع في هذا الفن) .[٣]

التفريق بين العلماء والمثقفين :

نشأ في المجتمعات الإسلامية طائفة من الأخيار الذين يفهمون الإسلام فهماً عاماً، فيعرفون التصور الإسلامي للكون والإنسان والحياة، مع اطلاع على مجمل القضايا التي تعد مفرق طرق بين الإسلام والأديان والمذاهب المعاصرة الأخرى .

وهم إلى ذلك يحملون همَّ نشر الدين الإسلامي، ويملكون وعياً بالقضايا المستجدة واطلاعاً على الحضارة الغربية وأوجه نقدها .

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٢٩٦/٢٧ ـ ٢٩٧) .

(٢) أخرجه الهروي في ذم الكلام (١٤/١ ـ ١٥) وانظر السلسلة الصحيحة (٢٥١٠) .

(٣) تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص ١٢٣) .

وهؤلاء ليسوا من علماء الشريعة، وإنما هم مفكرون وحكماء يستنار برأيهم ويستفاد من علمهم في الجوانب التي أجادوا فيها، ولا يخلط بين تصدرهم باعتبارهم مفكرين وبين العلماء .

والواجب على هؤلاء الرجوع إلى علماء الشريعة في أمور الشريعة، ويكونون عوناً لهم في شرح واقع ما يجيدون .

والواجب أيضاً أن يكون كلامهم محكوماً بالشرع، لا أن يكون مبنياً على أساس من العقول والأهواء .

قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله : (وقد فتن كثير من المتأخرين بهذا وظنوا أن من كثر كلامه وجداله وخصامه في مسائل الدين فهو أعلم ممّن ليس كذلك، وهذا جهل محض...) إلى أن قال رحمه الله : (فليس العلم بكثرة الرواية، ولا بكثرة المقال، ولكنه نور يقذف في القلب يفهم به العبد الحق، ويميز به بينه وبين الباطل ويعبر عن ذلك بعبارات وجيزة محصلة للمقاصد) .[1]

ومن المثقفين ممّن يعرفون بعلم الأدب واللغة والطب والهندسة وعلم الاجتماع والاقتصاد ونحوهم . فهؤلاء جميعاً ليسوا من علماء الشريعة ولا يجوز لهم الخوض في أحكام الشريعة بغير العلم .

قال ابن الجوزي رحمه الله : (فترى الإنسان منهم لا يكاد يعرف من آداب الشريعة إلا القليل ولا من الفقه، ولا يلتفت إلى تزكية نفسه وصلاح قلبه، ومع هذا ففيهم كبر عظيم، وقد خيل لهم إبليس أنكم علماء الإسلام) .[2]

لذا لا بُدَّ من التنبه لهذا الأمر والوقوف عنده، ومعرفة العلماء من غيرهم، الذين يجب عليهم الرجوع إلى علماء الشريعة لأخذ الفتيا عنهم .

التفريق بين العلماء وغيرهم من المشايخ والقراء :

إن اسم الشيخ في وقتنا وبلدنا يطلق في الغالب على من حمل شهادة شرعية قد تكون شهادة ثانوية أو جامعية .

وبالقراء هم الذين يقرِّؤون القرآن أو يحملون إجازة بقراءته .

---

(١) بيان فضل علم السلف على علم الخلف لابن رجب (ص ٥٧ ـ ٥٨) .

(٢) تلبيس إبليس لابن الجوزي (ص ١٢٦) .

فليس كل من تخرج من جامعة أو كلية شرعية أو معهد شرعي هو من العلماء، بل يوجد الكثير منهم ممّن ليس من العلماء، والقلّة من هؤلاء برعوا في العلم وطلبه واستمروا في الطلب حتى أصبحوا من علماء الأمة .

قال الإمام الذهبي رحمه الله : (قوم انتموا إلى العلم في الظاهر، ولم يتقنوا منه سوى نزر يسير أوهموا به أنهم علماء فضلاء، ولم يدر في أذهانهم قطّ أنهم يتقربون به إلى الله، لأنهم ما رأوا شيخاً يقتدى به في العلم فصاروا همجاً رعاعاً، غاية المدرس منهم أن يحصل كتباً مثمنة يخزنها وينظر فيها يوماً، فيصحف ما يورده ولا يقرره، فنسأل الله النجاة والعفو) .[1]

فكم من قارئ للقرآن ولا يفهم معناه والمقصود منه، وكم من حافظ للحديث ولا يفقه حكمه ولا معناه ومقصوده .

ومن ثم يتصدر المجالس للتحدث والفتيا والبيان، وظنّ الناس أنه من أهل العلم والبيان، ولا حرج فإن الذي حملهم على ظنهم لقلة أهل العلم ونقصانه، فلمّا سمعوا به غرّهم لكثرة الجهل .

وقد قال النبي ﷺ عن الخوارج : « **يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم** ».[2]

قال الإمام الشاطبي رحمه الله : (لا يتفقهون فيه بل يأخذونه على الظاهر) .[3]

أي أنهم لا يعرفون مقاصد القرآن ولا أحكامه ولا معانيه، وإنما يقضون على ظواهره لقلّة معرفتهم وجهلهم بالعلم .

وبعد هذا يتضح لنا من هم العلماء، ومن هم أهل العلم .

فالعالم هو الذي يخشى الله ويتقيه حق تقاته، ويعمل بطاعته، ويحذر معصيته، ويطلب العلم لله، لا ليماري به العلماء، أو ليجاري به السفهاء، أو ليصرف به وجوه الناس إليه، أو ليوسع له في المجالس، وتغدق عليه الجوائز والصلات، ويلقى عليه حالة من التقديس، فيمدح بما ليس فيه .

---

(١) سير أعلام النبلاء للذهبي (١٥٣/٧) .

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٣٢) في كتاب التوحيد، (باب قول الله عزّ وجلّ : ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾). ومسلم (١٠٦٤) في كتاب الزكاة، (باب ذكر الخوارج وصفتهم) .

(٣) الاعتصام للشاطبي (١٠/١) .

وعالم السوء هــو من أحسن زخرفة الألفاظ، وأجــاد سبك الــعبارات، وهــو في الداخل خواء من كل فضيلة، قد ملأ النفاق قلبه . يقول ما لا يفعل، ويفعل ما لا يؤمر، ويقفو ما ليس له به علم .

أسأل الله عزَّ وجلّ أن يجعلنا من طلبة العلم الذين يحرصون عليه ويبذلون الجهد في طلبه ومن ثم تعليمه والعمل به وتطبيقه إنه سميع قريب مجيب . وأن يبعدنا عن السوء وأهله، والله أعلم .

الفصل الثاني : فضل العلماء :

إن الله سبحانه وتعالى عظّم شأن العلماء، ورفع من قدرهم ومكانتهم، يهدون إلى الحق ويرشدون إليه، فهم منارات الهدى، ومصابيح الدجى .

فلولا العلماء لكان الناس في جهل وظلمة، لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، فلهذا كان فضل العلماء على الأمة عظيم .

قال ابن القيم رحمه الله : (فهم في الأرض بمنزلة النجوم في السماء، بهم يهتدي الحيران في الظلماء، وحــاجة الناس إليهم أعــظم مــن حــاجتهم إلى الــطعام والشراب، وطاعتهم أفرض عليهم من طاعة الأمهات والآباء بنص الكتاب) .(١)

قــــال الله تــعالــــى : ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] .

قال القرطبي رحمه الله : (أي في الثواب في الآخرة وفي الكرامة في الدنيا، فيرفع المؤمن على من ليس بمؤمن والعالم على من ليس بعالم، وقال ابن مسعود ﷺ: مدح الله العلماء في هذه الآية . والمعنى أنه يرفع الله الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم) .(٢)

وعن أبي الطفيل عامر بن واثلة أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بعسفان وكان عمر يستعمله على مكة، فقال من استعملت على أهل الوادي ؟ فقال : ابن أبزى . قال: ومن ابن أبزى ؟ قال : مولى من موالينا . قال : فاستخلفت عليهم مولى ؟ قال : إنه قارئ لكتاب الله عز وجل وإنه عالم بالفرائض . قال عمر : أما إن نبيكم ﷺ قد قال : « إن

(١) إعلام الموقعين لابن القيم (٢٦/١) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٩٤/١٧) .

الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً ويضع به آخرين ». (١)

وفي الحديث أيضاً قوله ﷺ: « **وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب** ». (٢)

وقد جاءت الآيات الكثيرة التي تنص على فضل العلم وأهله، وكذا السنة المطهرة على صاحبها أفضل الصلاة وأتمّ التسليم .

قال ابن القيم رحمه الله : (كل ما كان في القرآن من مدح للعبد فهو من ثمرة العلم، وكل ما كان فيه من ذم للعبد فهو من ثمرة الجهل) .

وقال أيضاً : (ولو لم يكن في العلم إلا القرب من رب العالمين، والالتحاق بعالم الملائكة وصحبة الملأ الأعلى، لكفى به شرفاً وفضلاً، فكيف وعزّ الدنيا والآخرة منوط به، مشروط بحصوله) . (٣)

وتظهر أهمية العلماء وفضلهم من خلال ما يأتي :

أولاً : أمر الله بطاعتهم : كما في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾[النساء: ٥٩] .

عن ابن عباس رضي الله عنهما: (﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ يعني : أهل الفقه والدين) . وكذا قال مجاهد وعطاء والحسن البصري وأبو العالية : يعني العلماء . والظاهر ـ والله أعلم ـ أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء . (٤)

قال ابن القيم رحمه الله : (والتحقيق أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم،

---

(١) أخرجه مسلم (٨١٧) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، (باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلّمها) .

(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٤١) في كتاب العلم، (باب الحث على طلب العلم) . وحسنه الألباني ، انظر: المشكاة (٧٤/١) .

(٣) مفتاح دار السعادة لابن القيم (١٠٨/١) .

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٧١٢/١ ـ ٧١٣) . الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٦٨/٥) .

فكما أن طاعة العلماء تبع لطاعة الرسول ﷺ فطاعة الأمراء تبع لطاعة العلماء) .[١]

فإن أمر الله تعالى بطاعة العلماء لهو خير دليل على فضلهم وعلو منزلتهم ورفعتهم في الدنيا والآخرة .

ثانياً : أن الله أوجب الرجوع إليهم وسؤالهم عمّا أشكل، قال الله تعالى : ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء : ٧] .

قال ابن زيد : (أراد بالذكر القرآن، أي : فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن) وقال القرطبي : (لم يختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها، وأنهم المراد بقول الله عز وجل: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾) .[٢]

فالعلم إنما يؤخذ ويتلقى عن العلماء، فالعلماء يقومون بتعليم العلم، ويجب على الناس أن يتعلموا منهم، ويجب الرجوع إلى العلماء الثقاة المعروفين بالعلم .

قال محمد بن سيرين : (إن هذا العلم دين، فانظروا عمّن تأخذون دينكم) .[٣]

فإن بعض الناس في زماننا قد اعتزلوا العلماء الثقاة وأخذوا يتعلمون على أيدي جهال لا يدركون من العلم شيئاً، وهذا فيه خطورة عظيمة على الدين وعلى المجتمع .

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : (لا يزال الناس بخير ما أخذوا العلم عن أكابرهم، فإذا أخذوه عن صغارهم وشرارهم هلكوا) .

وقال أيضاً : (لا يزال الناس بخير ما أتاهم العلم من أصحاب رسول الله ﷺ ومن أكابرهم، فإذا جاءهم العلم من قبل أصاغرهم فذلك حين هلكوا) .[٤]

فالمراد بالأصاغر هم من لا علم لهم، والأكابر هم علماء الأمة .

ومن المتعلمين من يقتصر على مطالعة الكتب ويزعم أنه بذلك يستغني عن العلماء، وهذا خطأ كبير لأن الكتب فيها ما فيها من خطأ وصواب، بل قد يقرأ منها العبارات والجمل التي لا يفهم معناها ولا المقصود منها .

---

(١) إعلام الموقعين لابن القيم (٢٧/١) .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١١/١٨٠ ـ ١٨١) .

(٣) انظر مقدمة صحيح مسلم، (باب بيان أن الإسناد من الدين وأن الرواية لا تكون إلا عن الثقات، وأن جرح الرواة بما هو فيهم جائز بل واجب) .

(٤) ذكرهما ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله . انظر صحيح جامع بيان العلم وفضله للألباني (٦٩١ و ٦٩٣) .

قال الشاطبي رحمه الله : (وذلك أن السائل لا يصح له أن يسأل من لا يعتبر في الشريعة جوابه لأنه إسناد أمر إلى غير أهله) .(١)

ثالثاً : عظم شأنهم وقدرهم : فأشهدهم الله دون غيرهم على أعظم مشهود . قال تعالى : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ﴾ [آل عمران : ١٨] .

قال ابن كثير رحمه الله : (ثم قرن شهادة ملائكته وأولي العلم بشهادته... وهذه خصوصية عظيمة للعلماء في هذا المقام) .(٢)

وقال العلامة السعدي رحمه الله : (وفي هذه الآية دليل على شرف العلم من وجوه كثيرة، منها: أن الله خصّهم بالشهادة على أعظم مشهود عليه دون الناس، ومنها: أن الله قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وكفى بذلك فضلاً، ومنها: أنه جعلهم أولي العلم، فأضافهم إلى العلم، إذ هم القائمون به المتصفون بصفته، ومنها: أنه تعالى جعلهم شهداء وحجة على الناس، وألزم الناس العمل بالأمر المشهود به، فيكونون هم السبب في ذلك، فيكون كل من عمل بذلك نالهم من أجره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، ومنها: أن إشهاده تعالى أهل العلم يتضمن ذلك تزكيتهم وتعديلهم وأنهم أمناء على ما استرعاهم عليه) .(٣)

رابعاً : أن الله تعالى نفى التسوية بين العلماء وغيرهم . قال الله : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [الزمر: ٩].

قال الشوكاني رحمه الله : (أو المراد العلماء والجهال ومعلوم عند كل من له عقل أنه لا استواء بين العلم والجهل، ولا بين العالم والجاهل) .(٤)

طبعاً لا يستوون فإن العالم يهدي الناس ويرشدهم ويعلمهم بخلاف غيره .

خامساً : أن العلماء هم أهل الفهم عن الله تعالى .

قال الله : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣] .

---

(١) الموافقات للشاطبي (١٩٢/٤) .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤٨٩/١) .

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي (ص: ١٢٥) .

(٤) فتح القدير للشوكاني (٤٥٣/٤) .

أي الراسخون في العلم هم المتضلعون بفهمها، ثم من كان أكثر فهماً لمراد الله من كلامه كان أكثر تطبيقاً وعملاً وتأثراً بخلاف غيره .

سادساً : أنهم أهل الخشية .

قال الله تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] .

وتقدم قول ابن كثير رحمه الله : (إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى، كلما كانت المعرفة به أتمّ والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر) .[1]

فكلما ازداد الإنسان علماً ازداد خشيةً لله، وطاعة وعبادة له، وتذللاً بين يديه، لذا كان النبي ﷺ أخشى الناس لله وأتقاهم له لكثرة علمه من غيره .

وأما الإنسان إن ازداد علماً ولكن دون خشية فلا خير فيه، وإنما تعلم للدنيا وليماري بعلمه العلماء، وليجاري به السفهاء، وليصرف به وجوه الناس إليه، نعوذ بالله من علم لا ينفع .

سابعاً : أنهم أبصر الناس بالشر ومداخله .

كما أخبر الله تعالى عن أهل العلم الذين كانوا في زمن قارون لما خرج بزينته وما تمنى أهل الدنيا من أن يكون لهم مثل قارون، قال لهم عندها أهل العلم كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [القصص: ٨٠] .

ثامناً : أنهم ورثة الأنبياء والمبلغون عنهم : ورثوا عنهم العلم فهم يحملونه في صدورهم وينطبع على أعمالهم ويدعون إليه الناس .

قال رسول الله ﷺ: « **وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهماً، ورّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر** ».[2]

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/٧٤٧) .

(٢) أخرجه أبو داود (٣٤٦١) في كتاب العلم، (باب الحث على طلب العلم) وحسنه الشيخ الألباني رحمه الله . انظر المشكاة (١/٧٤) .

تاسعاً : أن الله تعالى أراد بهم الخير .

قال رسول الله ﷺ: « **من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين** ».[١]

قال ابن حجر رحمه الله : (ومفهوم الحديث أن من لم يتفقه في الدين ـ أي يتعلم قواعد الإسلام وما يتصل بها من الفروع ـ فقد حرم الخير) إلى أن قال رحمه الله : (وفي ذلك بيان ظاهر لفضل العلماء على سائر الناس، ولفضل التفقه في الدين على سائر العلوم) .[٢]

وتوجد أمور كثيرة تدلّ على فضل العلماء وعلوّ منزلتهم ومكانتها، وأذكر منها أيضاً على سبيل الاختصار لأن المقام ليس بمقام التطويل :

منها : أن نجاة الناس منوطة بوجودهم، فإن يقبض العلماء يهلك الناس، لأنهم عندها سيتخذون رؤوساً جهالاً، ويأتي زيادة بيان إن شاء الله عند الكلام عن العلماء والفتيا .

ومنها : أنهم أئمة الدين : نالوا هذه المنزلة العظيمة بالاجتهاد والصبر وكمال اليقين .

كما قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] .

ومنها : أن علم العلماء يبقى بعد موتهم ولا ينقطع .

كما في قوله ﷺ: « **إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له** ».[٣] وغيرها كثير . وأكتفي بهذا القدر . وأسأل الله عزَّ وجلّ أن يرزقنا العلم النافع وأن يجعلنا من طلبة العلم وأهله .

الفصل الثالث : العلماء والعمل :

إن من آثار العلم العمل، والعلم طريق إليه فمن لم يعمل بعلمه فهو بمنزلة من لم يعلم . قال الله تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ ﴾ [الزمر : ٩] .

---

(١) أخرجه البخاري (٧١) في كتاب العلم، (باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين) . ومسلم (١٠٣٧) في كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة .

(٢) فتح الباري لابن حجر (٢١٨/١) .

(٣) أخرجه مسلم (١٦٣١) في كتاب الوصية، (باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته) .

ففي الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : (الذين يعلمون هم الذين ينتفعون بعلمهم ويعملون به، فأما من لم ينتفع بعلمه ولم يعمل به فهو بمنزلة من لم يعلم) .[١]

وقال الشوكاني : (وقيل المراد بالذين يعلمون : هم العاملون بعلمهم فإنهم المنتفعون به لأن من لم يعمل بمنزلة من لم يعلم) .[٢]

وقال أبو بكر الجزائري : (فضل العالم على الجاهل لعمله بعلمه ولولا العمل بالعلم لاستويا في الخسة والانحطاط) .[٣]

فالعلم النافع والعمل الصالح قرينان لا يصلح أحدهما بدون الآخر قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ ﴾ [الصف: ٩]، فالهدى : هو العلم النافع . ودين الحق : هو العمل الصالح .[٤]

قال ابن تيمية رحمه الله : (فأما وسم اليهود بالغضب والنصارى بالضلال فله أسباب ظاهرة وباطنة، ليس هذا موضعها . وجماع ذلك : أن كفر اليهود أصله من جهة عدم العمل بعلمهم، فهم يعلمون الحق، ولا يتبعونه قولاً أو عملاً أو لا قولاً ولا عملاً، وكفر النصارى : من جهة عملهم بلا علم، فهم يجتهدون في أصناف العبادات بلا شريعة من الله، ويقولون على الله ما لا يعلمون، ولهذا كان السلف كسفيان بن عيينة وغيره يقولون : من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبادنا ففيه شبه من النصارى) .[٥]

لذا جاء التحذير من مخالفة العمل للقول في آيات من القرآن الكريم، وجاءت السنة أيضاً مبينة عقوبة من خالف فعله قوله، وقصد من العلم التجمل والتزين والمباهاة والرياء والشهرة والسمعة .

قال أبي بن كعب رضي الله عنه: (تعلموا العلم واعملوا به، ولا تتعلموه لتتجملوا به، فإنه يوشك إن طال بكم زمان أن يتجمل بالعلم كما يتجمل الرجل بثوبه) .

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥/١٥٦) .

(٢) فتح القدير للشوكاني (٤/٤٥٣) .

(٣) أيسر التفاسير للجزائري (٤/٤٧٢) .

(٤) من كلام الشيخ صالح الفوزان، تحقيق جامع بيان العلم (ص: ٢٦) .

(٥) اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية (ص: ٢١) .

وعن الحسن قال : (اعتبروا الناس بأعمالهم ودعوا أقوالهم، فإن الله لم يدع قولاً إلا جعل عليه دليلاً من عمل يصدقه أو يكذبه، فإذا سمعت قولاً حسناً فرويداً بصاحبه، فإن وافق قوله عمله فنعم ونعمة عين) .[١]

فإن صلاح العلماء فيه صلاح للأمة، وفي فسادهم فساد للأمة، لأن الناس يتأثرون بالعمل أكثر ممّا يتأثرون بالقول . وإن الناس ينظرون إلى العلماء نظرة تفحص وتأمل، وينتقدونهم في كل شيء .

قال عبد الله بن المبارك رحمه الله : (صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس . قيل : من هم ؟ قال : الملوك والعلماء) .

وقال ابن القيم رحمه الله : (ولما كان التبليغ عن الله سبحانه وتعالى يعتمد العلم بما يبلغ، والصدق فيه، لم تصلح مرتبة التبليغ بالرواية والفتيا إلا لمن اتصف بالعلم والصدق، فيكون عالماً بما يبلغ، صادقاً فيه، ويكون مع ذلك حسن الطريقة، مرضي السيرة، عدلاً في أقواله وأفعاله، متشابه السر والعلانية في مدخله ومخرجه وأحواله) .[٢]

وذكر مالك أنه بلغه عن القاسم بن محمد قال : (أدركت الناس وما يعجبهم القول، إنما يعجبهم العمل) .[٣]

وعن الحسن في قوله تعالى : (﴿ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ﴾ [الأنعام: ٩١] قال : علمتم فعلمتم ولم تعملوا، فوالله، ما ذلكم بعلم) .

وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : قال لي ابن المبارك : (أكثركم علماً ينبغي أن يكون أكثركم خوفاً) .[٤]

لذا كان النبي ﷺ أكثر الناس خشية لله وطاعة له وعبادة وأتقى، لأنه أعلم الناس، وكذلك كان الصحابة ﷺ من بعده لكثرة علمهم .

فلا خير في صاحب علم لا يعمل بعلمه، وإنما أراد منه المناصب والتزين والدنيا . فالعلماء هم رواد الأمة، وأولها وفي مقدمتها، وليكن في عقولهم وحسبانهم وليعلموا أنهم

---

(١) نقلاً عن كتاب مختصر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (ص: ٢٦٢ ـ ٢٦٣) .

(٢) إعلام الموقعين (٢٧/١) .

(٣) مختصر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (ص: ٢٦٤) .

(٤) مختصر جامع بيان العلم وفضله (ص: ٢٦٩) .

مسؤولون، وموقوفون بين يدي الله .

لما سجن الإمام أحمد رحمه الله في فتنة القول بخلق القرآن دخل عليه المروزي وهو أحد أصحابه وقال له : يا أستاذ قال الله : ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] .

قال أحمد : يا مروزي ! اخرج انظر أي شيء ترى . قال : فخرجت إلى رحبة دار الخليفة فرأيت خلقاً من الناس لا يحصي عددهم إلا الله، والصحف في أيديهم، والأقلام والمحابر في أذرعهم . فقال لهم المروزي : أي شيء تعملون ؟ فقالوا : ننظر ما يقول أحمد فنكتبه . قال المروزي : مكانكم . فدخل إلى أحمد فقال له : رأيت قوماً بأيديهم الصحف والأقلام ينتظرون ما تقول فيكتبونه . فقال : يا مروزي، أضل هؤلاء كلهم ؟ أقتل نفسي ولا أضل هؤلاء .[1]

هكذا العالم يحرص على صلاح الأمة لأنه الرائد والقائد، وإن في ذلك لعبرة .

الفصل الرابع : العلماء والفتيا :

لا بُدَّ من البيان أولاً أن الفتيا ليست مشاعة لكل أحد، وإن ممّا بليت به أمة الإسلام أن بعض محبي الخير إذا فتح له باب في التأثير على الناس كموهبة في الكتابة أو فصاحة في الخطابة أو غير ذلك، صدّر نفسه للفتيا، وأطلق الأحكام بالحل والحرمة .

وهذا من أعظم المصائب، ويزداد شر المصيبة عند التباس الأمر على العامة بعدم التفريق بين العالم الذي أمرنا الله بسؤاله وبين غير العالم .

فإن الفتيا لها شروط وتبقى موقوفة على العلماء المعروفين بالعلم وسلامة المنهج والمعتقد . وعدم التفريق بين العلماء وغيرهم جرَّ على كثير من المجتمعات الإسلامية النكبات والويلات، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وتقدم الكلام عن ذلك مختصراً عندما تحدثت عن فضل العلماء، وزيادة على ما تقدم أن الواجب على المسلمين أن يأخذوا العلم والفتيا من العلماء ولا يرجعوا إلى غيرهم ممّن لا علم له إلا ادعاء .

قال رسول الله ﷺ: « **إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبقِ عالماً اتخذ الناس رؤوساً جهالاً فسئلوا،**

---

(١) معالم في منهج الدعوة إلى الله (ص: ٦٤ ـ ٦٥) .

فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا ».[١]

قال ابن حجر رحمه الله : (وفي هذا الحديث الحثّ على حفظ العلم والتحذير مــن ترئيس الجهلة، وفــيه أن الفتوى هــي الرياسة الــحقيقية وذمّ من يقــدم عليها بغير علم) .[٢]

والواجب أيضاً على من لا علم له وليس من العلماء أن لا يتصدر للفتيا، وألا يتزبب قبل أن يتحصرم، وأعني ألا يصير عالماً صدراً دون أن يتعلم .

قال الإمام مالك رحمه الله : (ليس كل من أحبّ أن يجلس في المسجد للتحديث والفتيا جلس حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل، وأهل الجهة من المسجد، فإن رأوه أهلاً لذلك جلس، ومــا جلست حتى شــهد لــي سبعون شيخاً من أهل العلم أنــي موضع لذلك).[٣]

فالعلماء هم أصحاب الفتيا وأهلها، ومع هذا فكانوا يكرهون التسرع فيها .

قال ابن القيم رحمه الله : (وكان السلف من الصحابة والتابعين يكرهون التسرع في الفتوى ويودّ كل واحد منهم أن يكفيه إياها غيره، فإذا رأى بها قد تعينت عليه بذل اجتهاده في معرفة حكمها من الكتاب والسنة أو قول الخلفاء الراشدين ثم أفتى) .[٤]

وعــن عــبد الــرحمن بــن أبــي لــيلى قال : (أدركت عشرين ومائة من أصحاب رسول الله ﷺ فما كان منهم محدث إلا ودَّ أن أخاه كفاه الحديث، ولا مفتي إلا ودَّ أن أخاه كفاه الفتيا) .

لذا ذكر ابن قدامة رحمه الله من صفات علماء الآخرة بأنهم لا يتسرعون إلى الفتوى ولا يفتون إلا بما يتيقنون صحته .[٥]

وليس من الضروري أن يكون العالم عالماً بالإجابة عن كل ما يسأل عنه، قد

---

(١) أخرجه البخاري (١٠٠) في كتاب العلم، (باب كيف يقبض العلم) . ومسلم (٢٦٧٣) في كتاب العلم، (باب رفع العلم وقبضه) .

(٢) فتح الباري لابن حجر (١/٢٦٠) .

(٣) الديباج لابن فرحون (ص: ٢١) .

(٤) إعلام الموقعين لابن القيم (١/٤٦) .

(٥) مختصر منهاج القاصدين لابن قدامة (ص: ٤٣) .

تخفى عليه بعض المسائل ولا يجد لها جواباً لأسباب عدة، ولا يعدُّ ذلك من النقص فيه .

بل الواجب عليه ألا يجيب فيما لا يعلم ويكفي قوله لا أدري أو لا أعلم .

قال العلامة السعدي رحمه الله: (ومن أعظم ما يجب على المعلمين أن يقولوا لما لا يعلمونه : الله أعلم . وليس هذا بناقص لأقدارهم، بل هذا ممّا يزيد قدرهم، ويستدل به على كمال دينهم، وتحريهم للصواب) .(١)

وقال ابن مفلح الحنبلي رحمه الله : (فصل في قول العالم : لا أدري، واتقاء التهجم على الفتوى) . ثم ذكر بإسنادٍ حسنٍ عن علي ﷺ قال : من علم الرجل أن يقول لما لا يعلم : الله أعلم، لأن الله عزَّ وجلّ قال لرسوله ﷺ: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦]) .

وقال سعيد بن جبير : ويل لمن يقول لما لا يعلم : إني أعلم .

وقال مالك : من فقه العالم أن يقول : لا أعلم، فإنه عسى أن يهيأ له الخير .(٢)

لذا فالواجب على العلماء الوقوف فيما لا علم لهم به، وهذا من صفات العلماء الربانيين، ولقد ورد عن الصحابة والتابعين والأئمة وكبار علماء الأمة من قديم، ورد عنهم الكثير من المسائل التي قالوا فيها لا ندري . ولم ينقص ذلك من علمهم ولا قدرهم، بل هم منارة الأمة ومصابيحها .

عن ابن سيرين قال : (لم يكن أحد بعد النبي ﷺ أهيب لما لا يعلم من أبي بكر ﷺ، ولم يكن أحد بعد أبي بكر أهيب لما لا يعلم من عمر ﷺ . وإن أبا بكر نزلت به قضية فلم يجد في كتاب الله منها أصلاً ولا في السنة أثراً، فاجتهد رأيه ، ثم قال : هذا رأيي فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني وأستغفر الله) .(٣)

وسئل الإمام الشافعي رحمه الله عن المتعة، أكان فيها طلاق أو ميراث أو نفقة تجب أو شهادة ؟ فقال : (والله ما ندري) .(٤)

وأخيراً لا بُدَّ أن يعلم أن الله تعالى حرم القول عليه بغير علم في الفتيا وغيرها

---

(١) الفتاوى السعدية (ص: ٦٢٨) .

(٢) الآداب الشرعية لابن مفلح (٦٤/٢) .

(٣) صحيح جامع بيان العلم وفضله (ص: ٣٢٧) .

(٤) تذكرة السامع (ص: ٤٢) .

وجعله من أعظم المحرمات، بل جعله في المرتبة العليا منها كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٣] .

وهذا يعمّ القول عليه سبحانه بلا علم في دينه وشرعه وأفعاله . كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [النحل: ١١٦] .

دلّت الآية على أنه لا يجوز للعبد أن يقول هذا حلال وهذا حرام إلا بما علم أن الله أحلّه وحرّمه .

قال بعض السلف : ليتقِ أحدكم أن يقول أحلّ الله كذا، وحرّم كذا، فيقول الله له : كذبت لم أحلّ كذا، ولم أحرّم كذا . والله أعلم .

الفصل الخامس : العلماء والأمراء :

أريد أن أتكلم هنا في أمرين :

الأول : نصح العلماء للأمراء والدعاء لهم .

الثاني : الدخول على الأمراء (دخول العلماء عليهم) .

وقبل ذلك لا بُدَّ من العلم أن طاعة الأمراء واجبة في المعروف، يطاعون في طاعة الله، ولا طاعة لهم في معصية الخالق .

وقد جاءت النصوص من الكتاب والسنة تدل على هذا الأمر، وعلى سبيل الإيجاز منها قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩]. وتقدم القول فيها عند الحديث عن فضل العلماء وأن المراد بأولي الأمر في أحد القولين أنهم الأمراء، وهي عامة في الأمراء والعلماء .

ومن السنة قوله ﷺ: « **على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة** ».[1]

يفهم منه أنه لا سمع ولا طاعة في معصية .

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٤٤) في كتاب الأحكام، (باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية) . ومسلم (١٨٣٩) في كتاب الإمارة، (باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية) .

قال ابن حجر رحمه الله في شرح هذا الحديث : (قوله فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة، أي لا يجب ذلك بل يحرم على من كان قادراً على الامتناع) .[١]

نصح العلماء للأمراء والدعاء لهم :

واجب العلماء النصح لكل مسلم وهذه هي مهمتهم الأولى، اقتداء برسل الله عليهم الصلاة والسلام، فعملهم تعليم الناس وإرشادهم وتوجيههم إلى الخير والصلاح .

وإن نصح الأمراء من باب أولى، لأن في صلاح الأمراء صلاح للأمة، وفي فسادهم فساد لها . كما قال عبد الله بن المبارك وغيره من السلف : (صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس، قيل من هم ؟ قال : الملوك والعلماء).[٢]

لذا نصح العلماء للأمراء أولى وأوجب .

وفي الحديث قوله ﷺ : « **الدين النصيحة** » قلنا : لمن ؟ قال : « **لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم** » .[٣]

قال النووي رحمه الله: (وأما النصيحة لأئمة المسلمين فمعاونتهم على الحق، وطاعتهم فيه، وأمرهم به، وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف، وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين، وترك الخروج عليهم، وتألف قلوب الناس لطاعتهم) .[٤]

وقال الخطابي رحمه الله : (والصلاة خلفهم والجهاد معهم وأداء الصدقات إليهم، وأن لا يغروا بالثناء الكاذب عليهم وأن يدعى لهم بالصلاح) .[٥]

إذاً فنصيحة الأمراء واجبة على العلماء، وقد وضح الإمام النووي والإمام الخطابي كيفية نصح الأمراء، بالرفق واللطف وحملهم على الحق، وعدم الكذب عليهم بالثناء عليهم بما ليس فيهم .

والواجب على الأمراء الرجوع إلى العلماء وطلب الإعانة منهم لمعرفة الأحكام الشرعية للعمل بمقتضاها، لأن الأمراء إنما يطاعون إذا أمروا بالطاعة، والأمر بالطاعة إنما يكون بمقتضى العلم، كما قال ابن القيم رحمه الله : (والتحقيق أن الأمراء إنما

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١٣/١٥٤) .

(٢) إعلام الموقعين (١/٢٧) .

(٣) أخرجه مسلم (٥٥) في كتاب الإيمان، (باب بيان أن الدين النصيحة) .

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي (٢/٣٨) .

(٥) معالم السنن للخطابي (٥/٢٣٣) .

يطاعون إذا أمروا بمقتضى العلم، فطاعتهم تبع لطاعة العلماء، فإن الطاعة إنما تكون في المعروف وما أوجبه العلم) .[١]

ويشترط أيضاً في نصح الأمراء وإنكار المنكر حصول المعروف، فإذا كان إنكار المنكر يؤدي إلى ما هو أعظم مفسدة من هذا المنكر، فالأولى تركه .

قال ابن القيم : (فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يسوغ إنكاره، وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله، وهذا كالإنكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم، فإنه أساس كل شر وفتنة إلى آخر الدهر) .[٢]

وبهذا يتضح كيفية النصح للأمراء وإنكار المنكر الذي هم عليه .

وإن الدعاء للأمراء أمر مستحسن، الدعاء لهم بالصلاح والبطانة الصالحة والحكم بشرع الله، لأن في صلاحهم صلاح للأمة كما تقدم، وإن البعض قد يتهم من يدعو لأمير، وهذا ناشئ عن جهل في الدين . بل إن النبي ﷺ كان يدعو لقومه بالهداية وهم على الشرك، فما المانع من الدعاء للأمراء ولغيرهم بالهداية .

وعن الإمام أحمد رحمه الله قوله : (وإني لأدعو له بالتسديد والتوفيق في الليل والنهار والتأييد، وأرى له ذلك واجباً علي) .[٣]

وجاء أن الفضيل بن عياض رحمه الله قال : (لو أن لي دعوة مستجابة ما صيَّرتها إلا في الإمام، قيل له : وكيف ذلك يا أبا علي ؟ قال : متى صيَّرتها في نفسي لم تجزني، ومتى صيَّرتها في الإمام فصلاح الإمام صلاح العباد والبلاد . فقبّل ابن المبارك جبهته وقال: يا معلم الخير، من يحسن هذا غيرك !) .[٤]

دخول العلماء على الأمراء :

إن الأمراء على قسمين : أمير عادل، وأمير ظالم فاجر .

فالدخول على الأمير العادل الذي يحكم بالحق ويتقي الله في نفسه وفي رعيته له

---

(١) إعلام الموقعين لابن القيم (٢٧/١) .

(٢) إعلام الموقعين لابن القيم (٦/٣) .

(٣) السنة للخلال (٨٣/١) .

(٤) الحلية لأبي نعيم (٩١/٨) .

فضل عظيم وجاءت النصوص في مدحه .[1]

فلا بأس من دخول العلماء عليه لإعانته على الصلاح وتقوية له، بل قد يكون من الأمور المستحبة بشرط أمن الفتنة على النفس .

قال الإمام ابن عبد البر رحمه الله : (فأما العدل منهم الفاضل، فمداخلته ورؤيته وعونه على الصلاح من أفضل أعمال البر، ألا ترى أن عمر بن عبد العزيز إنما كان يصحبه جلّة العلماء مثل عروة بن الزبير وطبقته) ثم عدَّ رحمه الله عدداً من علماء الأمة الكبار وذكر منهم مالك والأوزاعي والشافعي، إلى أن قال : (وإذا حضر العالم عند السلطان غباً فيما فيه الحاجة إليه وقال خيراً، ونطق بعلم كان حسناً، وكان في ذلك رضوان الله إلى يوم يلقاه، ولكنها مجالس الفتنة فيها أغلب، والسلامة منها ترك ما فيها) .[2]

فإن كان في الدخول عليهم خوف على النفس من الفتنة أو أي أمر سوء فالأولى عدم الدخول .

وأما الدخول على أمراء السوء والظلم :

من صفات علماء الآخرة أن يكونوا منقبضين عن السلاطين الظلمة الفسقة محترزين من مخالطتهم، لما في الدخول عليهم من الفتن العظام، كتصديقهم بالكذب، والثناء عليهم بما ليس فيهم، وتأييدهم وإقراراهم على الباطل .

وبخاصة إذا تزلّف العلماء للأمراء وأذلّوا ما أكرمهم الله به من علم وأفتوا في المسائل برضاهم وأمرهم، حتى أصبح الأمراء السلطة التشريعية، والعلماء السلطة التنفيذية، ينفذون ما يؤمرون به ولو كان باطلاً، للوصول إلى مبتغاهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

مع أن العلماء في الأصل هم المشرعون يبينون أحكام الكتاب والسنة للأمراء ويرشدونهم والأمراء ينفذون، وتقدم الكلام القيّم من العلامة ابن القيّم رحمه الله من أن الأمراء يطاعون لطاعتهم للعلماء، كما أن العلماء يطاعون لطاعتهم

---

(١) كقوله ﷺ: « **سبعة يظلهم الله في ظله...** » ومنهم : « **إمام عادل** » . أخرجه البخاري (٦٦٠) في كتاب الأذان، (باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، وفضل المساجد) .

(٢) مختصر جامع بيان العلم وفضله (ص: ٢٤١) .

لرسول الله ﷺ.

فالأصل عدم الدخول على أمثال هؤلاء إلا لأمر شرعي كإنكار منكر، ونصح وإرشاد أو لعذر شرعي ويعد من الأمور الشرعية كدفع مفسدة عن المسلمين أو جلب مصلحة لهم، ولغير ذلك فلا، فإنها من التهم والشبه على العالم .

وعن حذيفة ﷺ قال: إياكم ومواقف الفتن . قيل: وما مواقف الفتن يا أبا عبد الله ؟ قال : أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب، ويقول ما ليس فيه .

وعن ابن مسعود ﷺ قال : (إن على أبواب السلطان فتناً كمبارك الإبل، والذي نفسي بيده، لا تصيبوا من دنياهم شيئاً إلا أصابوا من دينكم مثله أو قال مثليه).

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله : (إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء، فاحذروا منه فإنه لص) .[1]

قال ابن عبد البر : (ومعنى هذا الباب كله في السلطان الجائر الفاسق، فأما العدل منهم الفاضل فمداخلته ورؤيته وعونه على الصلاح من أفضل أعمال البر) .[2]

وخاتمة هذا الفصل : فإن كان الإمام عادلاً فلا بأس من الدخول عليه وإعانته من غير إكثار إذا أمنت الفتنة .

وأما الظالم الفاجر فلا يدخل عليه إلا لإنكار المنكر، والنصح، أو دفع مفسدة، وجلب مصلحة، والدعاء له بالهداية أمر محبب . والله أعلم

الخاتمة :

١ ـ العلماء هم : العارفون بالله، المتفقهون في الدين، يخشون الله، ويعملون بعلمهم، طلبوا العلم لله، لا للمباهاة ولا لمجاراة السفهاء، ولا لدنيا .

٢ ـ فضل العلماء : لهم مكانة عظيمة ورفيعة، رفع الله شأنهم ومكانتهم وفضلهم على غيرهم .

٣ ـ التفريق بين العلماء وغيرهم من المثقفين والخطباء والوعاظ، والمشايخ والقراء . فإن العلم لا يكون بمجرد القول والكلام والشهادة، بل لا بُدَّ من برهان ودليل

---

(١) نقلاً عن منهاج القاصدين لابن قدامة (ص: ٤٢) . وجامع بيان العلم وفضله (ص: ٢٣٨) .

(٢) جامع بيان العلم وفضله (ص: ٢٤١) .

عليه .

٤ ـ في صلاح العلماء صلاح للأمة، وفي فسادهم فساد لها، ولا خير في عالم لا ينتفع بعلمه، ويؤيده بالعمل، فإنه بمنزلة من لا علم له، لأن علمه وبال عليه في الدنيا والآخرة .

٥ ـ إن الفتيا ليست مشاعة لكل أحد، بل هي خاصة بأهل العلم ممّن شهد لهم بذلك، وإن التجرؤ على الفتوى بغير علم من أعظم المصائب التي ابتليت بها الأمة .

٦ ـ تحريم القول على الله وعلى رسوله ﷺ بغير علم، وأنه من أعظم الذنوب .

٧ ـ واجب العلماء نصح الأمراء ودعوتهم وتعليمهم وإرشادهم والأخذ على أيديهم لإقامة الشريعة وتحقيق العدل، والدعاء لهم بالهداية والتوفيق والتسديد .

٨ ـ لا بأس في الدخول على الأمراء من قبل العلماء إذا كان الأمراء أصحاب عدل وطاعة، لإعانتهم على الحق .

٩ ـ وأما الدخول على أمراء السوء فإنه من الفتن إلا لإنكار المنكر أو دفع مفسدة .

١٠ ـ إن إنكار المنكر إذا أدّى إلى مفسدة أعظم فالأولى تركها .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.





منهج النبي ﷺ في التعامل مع النفوس

فضيلة الشيخ الدكتور سعد بن عبد الله البريك ۞

مُقَدِّمَة:

الحمد لله الذي علَّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على معلِّم الخير، المبعوث بالحكمة والرحمة، وعلى آله وصحبه أجمعين .

أما بعد ،

فإن التعامل مع النفوس أمر شاق يحتاج إلى كثير من الحكمة، وعلمٍ ودرايةٍ بأحوالها وطباعها، لا سيما إذا كان المراد من ذلك تقويمها وتصحيحها لتستقيم على سلوكٍ واحدٍ بردّها إلى مقتضيات الفطرة وأصول الطبيعة الإنسانية .

منهج النبي ﷺ في التعامل مع النفوس :

وقد رسم النبي ﷺ منهجاً في التعامل مع النفس سواء كانت أمارة بالسوء أو لوامة أو مطمئنة، في غاية العدل وفي منتهى الحكمة، فكل نفس لها ما يناسبها من التعامل والمعاملة .

فمن كانت نفسه تميل إلى التشدد ناسبه الزجر، ومن كانت نفسه تميل إلى التفلت ناسبته الحجة والإقناع، ومن كانت فيه غلظة كان الحلم والصبر خير أسلوب للتعامل معه، ومن كان متميزاً في العلم علّمه وأعانه، ومن كان أميناً مدحه بذلك تثبيتاً له، ومن توسم فيه صفات قيادية للحرب ولاه قيادة الجيش .

وكان الرفق هو الإطار العام والمنهج الشامل لتعامل النبي ﷺ مع مختلف

۞ داعية إسلامي، وخطيب وإمام مسجد بالرياض، له عدد من المحاضرات والندوات، زار عدداً كبيراً من دول العالم الإسلامي وأوروبا في الدعوة إلى الله، وله مشاركات في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية .

النفسيات والعقليات ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. وكما قال ﷺ : « **إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه** ».[١]

ولما كان النبي ﷺ القدوة الحسنة للدعاة والمربين والمعلمين والقادة والمسؤولين، رأيت أن أبيّن منهجه ﷺ في التعامل مع النفوس وذلك في ثمانية مباحث :

المبحث الأول : تعامله مع النفوس الزكية :

أما **الأنفس الطائعة الزكية**، فقد كان من هدي النبي ﷺ أنه كان **يثني على أصحابها** تشجيعاً لهم وتحفيزاً للمزيد، ومن ذلك :

أنه ضرب على صدر أبي بن كعب رضي الله عنه قائلاً: « **واللّهِ، ليهنك العلم أبا المنذر** »[٢] .

وسمى أبا عبيدة رضي الله عنه : « **أمينَ الأمة** »[٣] .

وابن مسعود رضي الله عنه: « **غلام معلم** »[٤] .

والزبير رضي الله عنه: « **حواريّ الرسول** »[٥] .

ولما قال رسول اللّه ﷺ « **من جهز جيش العسرة فله الجنة** »[٦]، جاء عثمان بن عفان رضي الله عنه بألف دينار فصبها في حجر النبي فقال ﷺ: « **ما ضرّ ابن عفان ما عمل بعد اليوم** » .[٧]

ولما قال أبو هريرة رضي الله عنه : يا رسول اللّه من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال له رسول اللّه ﷺ : « **لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا اللّه خالصاً من قِبَلِ نفسه** » .[٨]

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٤) في كتاب البر والصلة والآداب، (باب فضل الرفق) .

(٢) أخرجه مسلم (٨١٠) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، (باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي) .

(٣) انظر صحيح البخاري (٣٧٤٥) في كتاب فضائل الصحابة، (باب مناقب أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه) . وصحيح مسلم (٢٤٢٠) في كتاب فضائل الصحابة، (باب فضائل أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه) . وانظر السلسلة الصحيحة بهذا اللفظ (١٩٦٤).

(٤) مسند أحمد بن حنبل (٣٧٩/١) .

(٥) أخرجه البخاري (٢٨٤٦) في كتاب الجهاد والسير، (باب فضل الطليعة) . ومسلم (٢٤١٥) في كتاب فضائل الصحابة، (باب من فضائل طلحة والزبير) .

(٦) أخرجه البخاري (٢٧٧٨) في كتاب الوصايا، (باب إذا وقف أرضاً أو بئراً واشترط لنفسه مثل دلاء المسلمين) .

(٧) انظر سنن الترمذي (٣٧٠١) في كتاب المناقب . وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي .

(٨) أخرجه البخاري (٦٥٧٠) في كتاب الرّقاق، (باب صفة الجنة والنار) .

المبحث الثاني : تعامله مع النفوس ذات الهمم العالية :

أما منهجه ﷺ في التعامل مع النفوس ذات الهمم العالية، فهو **التشجيع وإسناد المهمة المناسبة للشخص المناسب** . ومن ذلك :

جاء أبو ذر الغفاري رضي الله عنه إلى مكة وأعلن إسلامه، لكن وجود شخصية متوقدة حماساً ضد الظلم والطغيان لا يناسب المرحلة الحرجة التي كانت تواجهها الدعوة، فأمره الرسول ﷺ بالرجوع إلى قبيلته ودعوتهم إلى الله والتريث، وقال له: « **ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري** » .[١]

وكذلك عندما جاء أبو ذر رضي الله عنه إلى النبي ﷺ يطلب الإمارة ردّه لعدم قدرته على القيام بمسؤولياتها . ففي صحيح مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه: قال: قلت: يا رسول الله! ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي ثم قال: « **يا أبا ذر! إنك ضعيف . وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها وأدّى الذي عليه فيها** » .[٢]

لكن النبي ﷺ لم يقل هذا القول لأبي بكر أو لعمر رضي الله عنهما، بل أشار إلى إمارتهما من بعده . فعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر** » .[٣]

وقال ﷺ : « **سدوا عني كل خوخة في هذا المسجد غير خوخة أبي بكر** » .[٤]

قال العلماء فيه إشارة إلى خلافة الصديق رضي الله عنه، لأن الخليفة يحتاج إلى القرب من المسجد لشدة احتياج الناس إلى ملازمته له للصلاة بهم وغيرها .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال لي رسول الله ﷺ في مرضه: « **ادعي لي أبا بكر أباك، وأخاك، حتى أكتب كتاباً، فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل :**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٢٢) في كتاب المناقب، (باب قصة إسلام أبي ذر الغفاري رضي الله عنه) . ومسلم (٢٤٧٤) في كتاب فضائل الصحابة، (باب من فضائل أبي ذر رضي الله عنه) . من حديث طويل .

(٢) أخرجه مسلم (١٨٢٥) في كتاب الإمارة، (باب كراهة الإمارة بغير ضرورة) .

(٣) أخرجه الترمذي (٣٦٦٢) في كتاب المناقب، (باب في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كليهما) . وصححه الألباني رحمه الله في السلسلة الصحيحة (١٢٣٣) .

(٤) أخرجه البخاري (٤٦٧) في كتاب الصلاة، (باب الخوخة والممر في المسجد) . ومسلم (٢٣٨٢) في كتاب فضائل الصحابة، (باب من فضائل أبي بكر الصديق) .

أنا أولى، ويأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر » .[(١)]

وفي معركة خيبر قال ﷺ: « **لأعطين هذه الراية رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله** »، فبات الناس يدوكون ليلتهم أيّهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجون أن يعطاها، فقال ﷺ : « **أين علي بن أبي طالب ؟** فقالوا: هو يا رسول الله يشتكي عينيه . قال: « **فأرسلوا إليه** »، فأتي به، فبصق رسول الله ﷺ في عينيه، ودعا له فبرأ، حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية .[(٢)]

ومن ذلك أيضاً ما رآه ﷺ من حنكة خالد بن الوليد ﷺ العسكرية والحربية، وقدرته على رسم الخطط وإنجاحها بأقل الخسائر الممكنة، فسلّمه قيادة الجيش، ففتح الله على يديه بلاداً كثيرة .

ولما رأى ﷺ في معاذ بن جبل الأنصاري ﷺ نفساً فقيهة بالحلال والحرام، أرسله إلى اليمن قاضياً ومفقهاً وأميراً .

وكذلك تعاهد ﷺ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما لما لمس من ذكائه ونبوغه وتعلق نفسه بالعلم، حتى إنه كان يأذن له أن يبيت معه في داره في ليلة خالته ميمونة رضي الله عنها، فأصبح ابن عباس رضي الله عنهما ترجمان القرآن .

وأما حسان بن ثابت ﷺ فلم يكن من أهل القتال ولا من أهل الفقه، بل كانت نفسه تمتلك موهبة شعرية نادرة وقريحة حاضرة، فتعامل النبي ﷺ مع هذه الموهبة بما يليق بها، ووظفها في مجالها المناسب . ففي صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: « **اهجوا قريشاً، فإنه أشد عليها من رشق النبل** »، .... قال حسان ﷺ : قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه (يقصد: لسانه)، ثم قال: والذي بعثك بالحق لأفرينهم بلساني فري الأديم، .... فقال ﷺ : « **إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله** ».[(٣)]

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٦٦) في كتاب المرضى، (باب ما رُخّص للمريض أن يقول : إني وجع) . ومسلم (٢٣٨٧) في كتاب فضائل الصحابة، (باب من فضائل أبي بكر الصديق) . وهذا لفظ مسلم .

(٢) أخرجه البخاري (٤٢١٠) في كتاب المغازي، (باب غزوة خيبر) . ومسلم (٢٤٠٦) في كتاب فضائل الصحابة، (باب من فضائل علي بن أبي طالب) .

(٣) أخرجه مسلم (٢٤٩٠) في كتاب فضائل الصحابة، (باب فضائل حسان بن ثابت) .

وفي رواية أخرى: « **اهجهم** » أو « **هاجهم وجبريل معك** » .(1)

المبحث الثالث : منهجه ﷺ في التعامل مع الأخطاء :

أما منهجه ﷺ في التعامل مع الأخطاء، فقد تجلى في صور عديدة منها :

الإشارة إلى الخطأ جملة بذكر بعضه والإعراض عن بعض: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ [التحريم: ٣].

عدم تسمية المخطئين، بل كان يعرّض بالخطأ الذي فعلوه فقط . عن أبي هريرة ﷺ : أن رسول الله ﷺ رأى نخامةً في قبلة المسجد فأقبل على الناس فقال : « **ما بال أحدكم يقوم مستقبل ربه فيتنخع أمامه، أيحب أحدكم أن يستقبل فيتنخع في وجهه ؟ فإذا تنخع أحدكم فليتنخع عن يساره تحت قدمه فإن لم يجد فليقل هكذا** » فتفل في ثوبه ثم مسح بعضه على بعض .(2)

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال النبي ﷺ: « **ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في صلاتهم** ». فاشتد قوله في ذلك حتى قال: « **لينتهن عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم** ».(3)

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: صنع النبي ﷺ شيئاً فرخص فيه، فتنزه عنه قوم، فبلغ ذلك النبي ﷺ فخطب فحمد الله ثم قال: « **ما بال أقوام يتنزهون عن الشيء أصنعه فو الله إني لأعلمهم بالله وأشدهم له خشيةً** » .(4)

ومن هديه ﷺ **محاصرة الخطأ لئلا يتوسع** أو ينتشر . عن أنس بن مالك ﷺ قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله ﷺ إذ جاء أعرابي فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : مه مه . قال رسول الله ﷺ : « **لا تزرموه، دعوه** » . فتركوه حتى

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢١٣) في كتاب بدء الخلق، (باب ذكر الملائكة) . ومسلم (٢٤٨٦) في كتاب فضائل الصحابة، (باب فضائل حسان بن ثابت) .

(٢) أخرجه مسلم (٥٥٠) في كتاب المساجد، (باب النهي عن البصاق في المسجد في الصلاة وغيرها) .

(٣) أخرجه البخاري (٧٥٠) في كتاب الأذان، (باب رفع البصر إلى السماء في الصلاة) .

(٤) أخرجه البخاري (٦١٠١) في كتاب الأدب، (باب من لم يواجه الناس بالعتاب) . ومسلم (٢٣٥٦) في كتاب الفضائل، (باب علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته) .

بال، ثم إن رسول الله ﷺ دعاه فقال له: « **إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر إنما هي لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن** » . قال فأمر رجلاً من القوم فجاء بدلو من ماء فشنه عليه .[١]

فلو همّ به الصحابة لفرّ منهم أثناء تبوله وانتشرت النجاسة بشكل أوسع في المسجد .

ومن هديه ﷺ أنه يشير إلى ما **يقنع المخطئ بخطئه**، مع أنه كان هو المشرع ﷺ ويكفي أن يذكر الحكم دون بيان الحكمة منه . عن جرهد ﷺ أن النبي ﷺ مرّ به وهو كاشف عن فخذه فقال النبي ﷺ : « **غطّ فخذك فإنها من العورة** » .[٢]

ومن هديه ﷺ أنه **لا يستعجل في حكمه** ولا يخطئ الآخرين دون تروٍ وتثبت .

قال الفاروق عمر ﷺ : سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ، فاستمعت لقراءته، فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله ﷺ، فكدت أساوره في الصلاة، فتصبرت حتى سلم فلببته بردائه، فقلت : من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ ؟ قال : أقرأنيها رسول الله ﷺ . فقلت : كذبت، فإن رسول الله ﷺ قد أقرأنيها على غير ما قرأت . فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ، فقلت : إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم تقرئنيها . فقال رسول الله ﷺ: « **أرسله، اقرأ يا هشام** » . فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ، فقال رسول الله ﷺ : « **كذلك أنزلت** » . ثم قال: « **اقرأ يا عمر** » . فقرأت القراءة التي أقرأني، فقال رسول الله ﷺ: «**كذلك أنزلت، إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما تيسر منه**».[٣]

ويدخل في هذا الباب، هديه ﷺ في **عدم إيقاع العقوبة قبل معرفة حال المخطئ وسؤاله عن سبب خطئه** . عن عباد بن شرحبيل ﷺ قال: قدمت مع عمومتي المدينة، فدخلت حائطاً من حيطانها، ففركت من سنبله، فجاء صاحب الحائط فأخذ كسائي

(١) أخرجه البخاري (٢١٩) في كتاب الوضوء، (باب ترك النبي ﷺ والناس الأعرابي حتى فرغ من بوله في المسجد) . ومسلم (٢٨٥) في كتاب الطهارة، (باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد) .

(٢) أخرجه الترمذي (٢٧٩٨) في كتاب الأدب، (باب ما جاء أن الفخذ عورة) . وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي .

(٣) أخرجه البخاري (٤٩٩٢) في كتاب فضائل القرآن، (باب أنزل القرآن على سبعة أحرف) . ومسلم (٨١٨) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، (باب بيان أن القرآن على سبعة أحرف وبيان معناه) .

وضربني، فأتيت رسول الله ﷺ أستعدي عليه، فأرسل إلى الرجل فجاءوا به، فقال: « **ما حملك على هذا ؟** » . فقال يا رسول الله : إنه دخل حائطي فأخذ من سنبله ففركه، فقال رسول الله ﷺ : « **ما علّمته إذ كان جاهلاً ولا أطعمته إذ كان جائعاً ؟**» . اردد عليه كساءه، وأمر لي رسول الله ﷺ بوسق أو نصف وسق .(١)

وفي صحيح البخاري عن علي ﷺ قال: بعثني رسول الله ﷺ وأبا مرثد الغنوي والزبير بن العوام، وكلنا فارس، قال : « **انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها امرأة من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين** » . فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله ﷺ، فقلنا: الكتاب، فقالت: ما معنا كتاب، فأنخناها فالتمسنا فلم نرَ كتاباً، فقلنا: ما كذب رسول الله ﷺ، لتخرجنّ الكتاب أو لنجردنّك، فلما رأت الجدَّ أهوت إلى حجزتها وهي محتجزة بكساء فأخرجته، فانطلقنا بها إلى رسول الله ﷺ، فقال عمر: يا رسول الله، قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلأضرب عنقه، فقال النبي ﷺ : « **ما حملك على ما صنعت ؟** » . قال حاطب: والله ما بي أن لا أكون مؤمناً بالله ورسوله ﷺ، أردت أن يكون لي عند القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحد من أصحابك إلا له هناك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله، فقال النبي ﷺ :« **صدق ولا تقولوا له إلا خيراً** » . فقال عمر : إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين فدعني فلأضرب عنقه، فقال ﷺ : « **أليس من أهل بدر ؟** » . فقال: « **لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة أو فقد غفرت لكم** » . فدمعت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم .(٢)

ومن هديه ﷺ أنه **لا يترك النفس المخطئة فريسة لعدوها** . عن أبي هريرة ﷺ أُتي ﷺ برجل قد شرب، قال : « **اضربوه** »، فمنا الضارب بيده، والضارب بنعله، والضارب بثوبه، فلمّا انصرف، قال بعض القوم : أخزاك الله، قال: « **لا تقولوا هكذا لا تعينوا عليه الشيطان** » .(٣)

---

(١) أخرجه النسائي (٥٤٠٩) في كتاب آداب القضاة، (باب الاستعداء) . وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي .

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٨٣) في كتاب المغازي، (باب فضل من شهد بدراً) . ومسلم (٢٤٩٤) في كتاب فضائل الصحابة، (باب من فضائل أهل بدر وقصة حاطب بن أبي بلتعة) .

(٣) أخرجه البخاري (٦٧٧٧) في كتاب الحدود، (باب الضرب بالجريد والنعال) .

ومن كانت **نفسه تميل إلى القسوة** والعنف على من تحت يده من خدم وزوجات وذرية، **ذكره ﷺ بقدرة الله عليه** . عن أبي مسعود البدري ؓ قال: كنت أضرب غلاماً لي بالسوط فسمعت صوتاً من خلفي: « **اعلم أبا مسعود** »، فلم أفهم الصوت من الغضب، قال: فلما دنا مني إذا هو رسول الله ﷺ فإذا هو يقول: « **اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود** »، فسقط من يدي السوط من هيبته، فقال :« **اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام** » . قال: فقلت : لا أضرب مملوكاً بعده أبداً . وفي رواية : فقلت يا رسول الله هو حرّ لوجه الله فقال: « **أما لو لم تفعل للفحتك النار أو لمسَّتك النار** » .(١)

ومن **أخطأ** وندم على خطئه، فإن النبي ﷺ كان **يعينه على ما يكفر به ذنبه ويحقق به توبته دون توبيخ وتقريع** . عن أبي هريرة ؓ قال: بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل فقال : يا رسول الله هلكت ! قال: « **ما لك ؟** » . قال : وقعت على امرأتي وأنا صائم . فقال رسول الله ﷺ : « **هل تجد رقبةً تعتقها ؟** » . قال: لا . قال: « **فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟** » قال: لا. فقال: « **فهل تجد إطعام ستين مسكيناً ؟** » قال : لا، فمكث النبي ﷺ، فبينا نحن على ذلك، أُتي النبي ﷺ بعرق فيها تمر، والعرق المكتل، فقال: « **أين السائل ؟** » . فقال : أنا، قال: « **خذها فتصدق به** » . فقال الرجل : أعلى أفقر مني يا رسول الله، فوالله ما بين لابتيها يريد الحرتين أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك النبي ﷺ حتى بدت أنيابه ثم قال: « **أطعمه أهلك** » .(٢)

المبحث الرابع: تعامله مع أصحاب النفوس العصبية:

أما النفوس التي تميل إلى **العصبية والقبلية** بعيداً عن جادة الإسلام ورابطة الأخوة الإيمانية، فإن النبي ﷺ كان **يعالجها بالتحذير من الحور بعد الكور والانتكاس** بعد الاستقامة وبيان ما ستؤول إليه حال أصحابها . قال جابر ؓ: « غزونا مع النبي ﷺ وقد ثاب معه ناس من المهاجرين حتى كثروا وكان من المهاجرين رجل لعّاب، فكسع أنصارياً، فغضب الأنصاري غضباً شديداً، حتى تداعوا، وقال الأنصاري : يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين . فخرج النبي ﷺ فقال: « **ما بال دعوى أهل الجاهلية ؟**» . ثم

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٥٩) في كتاب الأيمان، (باب صحبة المماليك، وكفارة من لطم عبده) .

(٢) أخرجه البخاري (١٩٣٦) في كتاب الصوم، (باب إذا جامع في رمضان ولم يكن له شيء، فتصدّق عليه فليكفّر) . ومسلم (١١١١) في كتاب الصيام، (باب تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان على الصائم ووجوب الكفارة الكبرى) .

قال: « **ما شأنهم ؟** » . فأخبر بكسعة المهاجري الأنصاري، قال: فقال النبي ﷺ : « **دعوها فإنها خبيثة** » .[(١)]

المبحث الخامس: تعامله مع من استهان بالدماء :

ومن **استهان بالدماء واسترخص الأرواح** ولو بنوع شبهة، **اشتد غضب النبي** ﷺ **منه وتغيظه عليه**، تنبيهاً على عظم ما ارتكبه . عن جندب بن عبد الله البجلي ﷺ : أن رسول الله ﷺ بعث بعثاً من المسلمين إلى قوم من المشركين، وإنهم التقوا، فكان رجل من المشركين إذا شاء أن يقصد إلى رجل من المسلمين قصد له فقتله، وإن رجلاً من المسلمين قصد غفلته، قال : وكنا نحدث أنه أسامة بن زيد، فلما رفع عليه السيف قال: لا إله إلا الله، فقتله، فجاء البشير إلى النبي ﷺ فسأله فأخبره حتى أخبره خبر الرجل كيف صنع، فدعاه فسأله، فقال:« **لم قتلته ؟** » . قال: يا رسول الله أوجع في المسلمين وقتل فلاناً وفلاناً، وسمّى له نفراً، وإني حملت عليه فلما رأى السيف قال: لا إله إلا الله . قال رسول الله ﷺ : « **أقتلته ؟!!** » . قال : نعم . قال: « **فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟** ». قال: يا رسول الله، استغفر لي . قال: « **وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟** ». قال : فجعل لا يزيده على أن يقول: « **كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟** ».[(٢)]

وفي رواية أن أسامة ﷺ قال : « فما زال ﷺ يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم » .[(٣)]

وقد انتفع أسامة ﷺ بهذا التعنيف وهذا الإنكار الشديد من النبي ﷺ في زمن الفتنة التي وقعت بين المسلمين بعد مقتل الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ فأمسك عن القتال، وسلم من الفتنة ولم يدخل فيها .[(٤)]

ومثل ذلك ما وقع من خالد بن الوليد ﷺ، حيث كان النبي ﷺ يستعمله على

(١) أخرجه البخاري (٣٥١٨) في كتاب المناقب، (باب ما ينهى من دعوة الجاهلية) . ومسلم (٢٥٨٤) في كتاب البر والصلة والآداب، (باب نصر الأخ ظالماً أو مظلوماً) .

(٢) أخرجه مسلم (٩٧) في كتاب الإيمان، (باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله) .

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٦٩) في كتاب المغازي، (باب بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد) . ومسلم (٩٦) في كتاب الإيمان، (باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله) .

(٤) سير أعلام النبلاء للذهبي (٢/٥٠٠) .

الحرب منذ أسلم، وقال: « **نِعْمَ عبد الله خالد بن الوليد، سيف من سيوف الله** »[١] ، ولما أرسله إلى بني جذيمة قتلهم، وأخذ أموالهم بنوع شبهة، ولم يكن يجوز ذلك، فقام النبي ﷺ ثم رفع يديه إلى السماء، وقال: « **اللهم إني أبرأ إليك ممّا صنع خالد** » .[٢]

المبحث السادس: تعامله مع أهل الإفراط والتفريط : وذلك في مطلبين :

المطلب الأول : تعامله مع أهل الإفراط والتشدد :

وكان من هديه ﷺ أنه يعامل من **كانت نفسه تميل إلى التشدد ببيان الوسطية** وأنها سنته وطريقته . عن أنس ؓ قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا : وأين نحن من النبي ﷺ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؟ قال أحدهم : أما أنا فإني أصلي الليل أبداً. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر . وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً . فجاء رسول الله ﷺ فقال: « **أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني** » .[٣]

المطلب الثاني: تعامله مع أهل التفريط والشهوة :

ومن كانت **نفسه تميل إلى الشهوة، كان ﷺ يأخذه بالحجة والإقناع المنطقي**، ويستميله بلين العبارة، لأن الشدة قد تدفعه إلى الاستجابة لقوة الشهوة وهوى النفس . روى الإمام أحمد عن أبي أمامة ؓ قال: إن فتى شاباً أتى النبي ﷺ، فقال : يا رسول الله ! ائذن لي بالزنا . فأقبل القوم عليه فزجروه، قالوا : مه مه ! فقال: « **ادنه** » . فدنا منه قريباً، قال: فجلس . قال :« **أتحبه لأمك ؟** » قال: لا والله، جعلني الله فداءك . قال : « **ولا الناس يحبونه لأمهاتهم** » . قال : « **أفتحبه لابنتك ؟** » قال : لا والله يا رسول الله ! جعلني الله فداءك . قال : « **ولا الناس يحبونه لبناتهم** » . قال :« **أفتحبه لأختك ؟** » قال : لا والله، جعلني الله فداءك . قال : « **ولا الناس يحبونه لأخواتهم** » . قال : « **أفتحبه**

(١) أخرجه الترمذي (٣٨٤٦) في كتاب المناقب، (باب مناقب خالد بن الوليد) . وانظر السلسلة الصحيحة (١٢٣٧) .

(٢) أخرجه النسائي (٥٤٠٥) في كتاب آداب القضاة، (باب الردّ على الحاكم إذا قضى بغير الحق) .

(٣) أخرجه البخاري (٥٠٦٣) في كتاب النكاح، (باب الترغيب في النكاح) . ومسلم (١٤٠١) في كتاب النكاح، (باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنه، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم) .

لعمتك ؟ » قال : لا والله، جعلني الله فداءك . قال: « **ولا الناس يحبونه لعماتهم** » . قال : « **أفتحبه لخالتك ؟** » قال: لا والله، جعلني الله فداءك . قال : « **ولا الناس يحبونه لخالاتهم** » . قال : فوضع يده عليه، وقال: « **اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه** » . فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء .[1]

المبحث السابع: تعامله مع أصحاب النفوس الخبيثة والمريضة : وذلك في مطلبين:

المطلب الأول : تعامله مع أصحاب النفوس الخبيثة :

أما هديه ﷺ مع **الأنفس الخبيثة والشكاكة كالمنافقين، فهو الزجر بزواجر القرآن والشدة في النبرة** . ففي غزوة تبوك قال رجل: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء . يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القراء . فقال عوف بن مالك: كذبت ولكنك منافق، لأخبرنّ رسول الله ﷺ، فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ، وقد ارتحل وركب ناقته فقال: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب ونتحدث حديث الركب نقطع به عنّا الطريق، قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقاً بنسعة ناقة رسول الله ﷺ وإن الحجارة لتنكب رجليه وهو يقول : إنما كنا نخوض ونلعب، فيقول رسول الله ﷺ : ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾ وما يلتفت إليه وما يزيد عليه .[2]

المطلب الثاني : تعامله مع أصحاب النفوس المريضة :

ومن هديه ﷺ مع النفوس المريضة أيضاً : أنه كان **يعامل أصحابها بالظواهر** ويكل السرائر إلى الله . فلهم ما لأهل الإسلام وعليهم ما على أهل الإسلام . وذلك لحكم عظيمة، فقد كان ﷺ يعرف المنافقين بأسمائهم وسماهم لحذيفة رضي الله عنه، قال تعالى : ﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾﴾ ومع ذلك لم يقتلهم لئلا يقال أن محمداً ﷺ يقتل أصحابه، رغم أنه لو أراد قتل المنافقين لاستطاع ذلك ولأيّده صحابته رضي الله عنهم، لكن لأجل مصلحة الإسلام لم يقتلهم .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢٥٦/٥ ـ ٢٥٧) وانظر السلسلة الصحيحة (٣٧٠) .

(٢) انظر تفسير الطبري (١١٩/١٠) وتفسير ابن كثير (٣٨١/٢) .

وهنا سؤال يطرح نفسه : كيف يجرؤ بعض الشباب على قتل المسلمين والأبرياء بحجة الجهاد ؟!! .

أين هم من هذا الهدي النبوي الذي قدم مصلحة الإسلام العليا على المصلحة التي قد تتحقق من قتل عدد من المنافقين رغم أذاهم الكبير ؟!! .

ومن هديه ﷺ في أصحاب الأنفس المريضة : **الجهاد بالحجة** والبرهان، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾ [التوبة: ٧٣].

ومعلوم أن جهاد الكفار يكون بالسيف والسنان، وأن جهاد المنافقين يكون بالحجة والبرهان .

المبحث الثامن : تعامله مع الكفار : وذلك في مطلبين :

المطلب الأول : تعامله مع الكفار غير المعاندين :

أما من هديه ﷺ **مع الكفار الذين أبت أنفسهم الحق ورفضته فلم يكن على** طريقة وسمت مطرد :

فمن كانت نفسه تميل إلى حب المال، ورجا ﷺ إسلامه أعطاه العطاء الجزيل **تأليفاً** لقلبه .

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ للأنصار : « **فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم** » . [١]

وعن رافع بن خديج رضي الله عنه قال : أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان بن حرب، وصفوان ابن أمية، وعيينة بن حصن، والأقرع بن حابس، كل إنسان منهم، مائة من الإبل، وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك، فقال عباس بن مرداس:

أتجعل نهبي ونهب العبيـ ـد بين عيينة والأقرع ؟
فما كان بدر ولا حابس يفوقان مرداس في المجمع
وماكنت دون امرئ منهما ومن تخفض اليوم لا يرفع

قال : فأتم له رسول الله ﷺ مائة . [٢]

---

(١) أخرجه البخاري (٤٣٣١) في كتاب المغازي، (باب غزوة الطائف) . ومسلم (١٠٥٩) في كتاب الزكاة، (باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبّر من قوي إيمانه) .

(٢) أخرجه مسلم (١٠٦٠) في كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبّر من قوي إسلامه) .

وعن أنس ﷺ أن رجلاً سأل النبي ﷺ غنماً بين جبلين فأعطاه إياه، فأتى قومه فقال : أي قوم أسلموا، فوالله إن محمداً ليعطي عطاء ما يخاف الفقر . فقال أنس ﷺ : إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها .(١)

المطلب الثاني : تعامله مع الكفار المعاندين :

أما من كان كافراً معانداً محارباً واستكبرت نفسه عن اتباع الحق، فحظه **الشدة والغلظة والدعاء عليه بالقتل** .

أخرج البخاري عن طارق بن شهاب قال سمعت ابن مسعود ﷺ يقول: شهدت من المقداد بن الأسود مشهداً لأن أكون صاحبه أحبُّ إلي ممّا عُدل به . أتى النبيَّ ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال : لا نقول كما قال قوم موسى: (اذهب أنت وربك فقاتلا) ولكنّا نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك، فرأيت النبي ﷺ أشرق وجهه وسره . يعني : قوله .(٢)

ولما كان يوم فتح مكة، أمّن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين وقال: اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة، عكرمة بن أبي جهل وعبد الله بن خطل ومقيس بن صبابة وعبد الله بن سعد بن أبي السرح .(٣) فبعضهم من قتل، وفرّ عكرمة وركب البحر ثم أسلم وحسن إسلامه .

هذا والله أعلم وأحكم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .



(١) أخرجه مسلم (٢٣١٢) في كتاب الفضائل، (باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال: لا، وكثرة عطائه) .

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٥٢) في كتاب المغازي، (باب قول الله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝٩﴾ [الأنفال: ٩]) .

(٣) أخرجه النسائي (٤٠٦٧) في كتاب تحريم الدم، (باب الحكم في المرتد) . وانظر السلسلة الصحيحة (١٧٢٣) .



الرأفة والرحمة في خلق النبي ﷺ

فضيلة الشيخ بدر بن أحمد الزعبي ۞

مُقَدِّمَة:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد،

فإن دراسة السيرة النبوية، والتنقيب في واحاتها، والغوص في بحارها لاستخراج كنوزها ومكنونات دررها، أمر عظيم، وعمل جليل قد رغّب الشارع فيه، وحثّ وحضّ عليه لنستلهم العِبر والعِظات، حتى نصل إلى أعلى المقامات، ونتفوق على غيرنا في جميع ميادين الحياة، ونقدم للعالم حضارة فاقت جميع الحضارات، فنحن المسلمون لا قيمة لنا بين الشعوب ولا اعتبار، إذا لم نرجع إلى كتاب ربّنا وسنّة نبيّنا ﷺ ونطبقهما على أرض الواقع، ونتحلى بصفات نبيّنا ﷺ الخُلقية.

فالأمة الإسلامية إذا تركت ما جاء به نبيّها ورسولها فهي لا شكّ أمة متلاشية مضمحلة، أوقعت نفسها في الهلاك والخسران.

ولكن يأبى الله تعالى إلا أن يتمّ نوره عبر طائفة ناجية وفرقة منصورة، وهي التي أخذت على عاتقها تبليغ ما أمر الله به ورسوله ﷺ إلى جميع البشرية.

وإن من أهم صفات هذه الطائفة المنصورة الأخلاق الحميدة، ومنها: الرأفة والرحمة بالناس لإنقاذهم ممّا هم قادمون عليه من الهلاك والبوار. تلك الرأفة التي طبّقوها على أنفسهم اقتداءً وتأسّياً بنبيّهم نبيّ الرحمة والرأفة ﷺ.

۞ حائز على الإجازة (الليسانس) في اللغة العربية من كلية الآداب بالجامعة اللبنانية، على عدة إجازات علمية في علوم القرآن الكريم واللغة العربية من عدة علماء، أشهرهم سماحة مفتي موريتانيا الإمام أحمد بن المرابط الشنقيطي وغيره.

ولكي نفهم الرأفة والرحمة بالمعنى المطلوب وجب علينا أن نسلّط الضوء على حياة النبي ﷺ من خلال بعض جوانبه الأخلاقية كالرأفة والرحمة مثلاً بجميع المخلوقات، لنسير على نور مبين، ونصل إلى الهدف المنشود، ونقدّم للعالم السلام المفقود، والأمن المعدوم، والسعادة التي يحلم بها كل إنسان، ولن نكون سعداء إلا إذا عملنا بما عمل به نبينا محمد ﷺ.

الباعث لكتابة هذا البحث :

وقد كان الباعث على كتابة هذا البحث، المشاركة في المسابقة التي أعلن عنها التجمع الثقافي في أنواكشوط، وعندما رأيت الإعلان معلّقاً على جدار المسجد الكبير، وقرأته بإمعان، وقع في قلبي العنوان الأوّل : الرأفة والرحمة في خلق النبي ﷺ، وانشرح صدري له، وتعلّقت نفسي به، ثم استخرت الله تعالى واستشرت فازددت يقيناً وإصراراً على المضي في هذا البحث، من أجل الدفاع عن نبيّنا وحبيبنا وقائدنا وشفيعنا، ونصره بكل ما نملك، ونذود عنه بكل ما أوتينا من قوة ضد أولئك السفهاء الذين تجرّأوا على مقام النبي ﷺ ليستهزؤوا ويسخروا منه ﷺ من خلال رسوم نشروها في الإعلام .

ولنظهر للعالم أجمع ما كان يتمتع به نبيّنا صلوات ربي وسلامه عليه من أخلاق فاضلة، لا يصل إليها أحد من البشر، لا سيّما الرأفة والرحمة اللتان اختصّ بهما عن غيره، وقد عمّت هذه الرحمة جميع البشر سواء المؤمن والكافر والمنافق .

أسأل الله تعالى أن يكتب لنا النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة، ويوفقنا لما يحبّه ويرضاه، إنه ولي ذلك والقادر عليه .

والحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وصلّى الله على نبيّنا محمد نبي الرحمة، وآله وأصحابه وسلّم تسليماً كثيراً .

قبسات مضيئة بين يدي البحث :

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤] .

وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ[١] حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١٢٨] .

وقال أيضاً : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] .

وقال رسول الله ﷺ عن نفسه : « **إنما أنا رحمة مهداة** ».[٢]

وقال ﷺ: « **الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء** ».[٣]

وقال أبو طالب يصفُ رسولَ الرأفة والرحمة ﷺ:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل[٤]

تعريف الرأفة والرحمة ومعنى الخُلُق :

١ ـ جاء في القاموس المحيط :

أ ـ الرأفة : أشدّ الرحمة وأرقّها .[٥]

ب ـ الرحمة : ويحرك : الرقة، والمغفرة، والتعطف .[٦]

جـ ـ الخُلُق : السجية والطبع والمروءة والدين، أمّا الطبع منه حديث عائشة رضي الله عنها : (كان خلقه القرآن) [٧]، أي متمسّكاً بآدابه وأوامره ونواهيه وما يشتمل عليه، وأمّا الدين : فمنه قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]. وفي

---

(١) ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ﴾ أي : يعزّ عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشقّ عليها . العنت : المشقّة ، يقال : أكمة عنوت : أي شاقة .

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (١٩٢/١) وصححه الألباني رحمه الله . انظر السلسلة الصحيحة (٤٩٠) .

(٣) أخرجه الترمذي (١٩٢٤) في كتاب البر والصلة، (باب ما جاء في رحمة الناس) . وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي .

(٤) ثمال : الملجأ، يقال : هو ثمال قومه، أي : الذي يقوم بأمر قومه . عصمة للأرامل : يحمي الأرامل ويحفظهم ويقيهم من الشرور .

(٥) القاموس المحيط (٢٧٩/٢) .

(٦) المصدر السابق (٣١٧/٢).

(٧) أخرجه مسلم (٧٤٦) في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، (باب جامع صلاة الليل، ومن نام عنه أو مرض) من حديث طويل .

الحديث : « **ليس شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق** »[(١)][(٢)].

٢ ـ وجاء في المصباح المنير تعريف الرحمة فقط :

أ ـ تقول : رحمت زيداً رحماً، بضم الراء، ورحمة، ومرحمة: إذا رققت له وحننت عليه . والفاعل: راحم، وفي المبالغة: رحيم، وجمعه: رحماء .[(٣)]

ب ـ والخلق : بضمتين : السجية .[(٤)]

٣ ـ وفي المعجم الوجيز :

أ ـ رأف به رأفة : رحمه أشدّ الرحمة وعطف عليه، فهو رائف . وترأّف به : عامله بالرأفة .[(٥)]

ب ـ رحم فلاناً رحمة ومرحمة : رقّ له وعطف عليه وغفر له . والرحمة : الخير والنعمة .[(٦)]

جـ ـ الخلق : حال للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال من خير أو شر من غير حاجة إلى فكر ورويّة . والجمع : أخلاق .[(٧)]

من خلال تعريف الرأفة والرحمة نلاحظ أنّ الرأفة أخصّ من الرحمة، والرحمة أعمّ منها، وبينهما خصوص وعموم، فكلّ رأفة رحمة، وليس كل رحمة رأفة .

وعلى كل حال نجد أنّ الرأفة والرحمة هما من سجايا النبي ﷺ ومن طبعه من غير تكلّف ولا تطبع، وأنهما تصدران عنه من غير حاجة إلى فكر وروية .

وهكذا كان ﷺ منذ ولادته إلى أن فاضت روحه الطاهرة مع جميع الناس، فهو كما قال عنه مرسله سبحانه وتعالى : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] .

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٩٩) في كتاب الأدب، (باب في حسن الخلق) . بلفظ : « **ما من شيء أثقل في الميزان...** ». وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود .

(٢) المصدر السابق (١٠٠/٢).

(٣) المصباح المنير (ص ١٣٦) .

(٤) المصدر السابق (ص ١١٠) .

(٥) المعجم الوجيز (ص ٢٤٩) .

(٦) المصدر السابق (ص ٢٥٩) .

(٧) المصدر السابق (ص ٢٠٧) .

أثر رحمة الله ببعثة النبي ﷺ:

تميزت بعثة نبيّنا محمد ﷺ عن غيرها من بعثات الأنبياء والرّسل بالشمولية والعالمية لجميع الثقلين الإنس والجن . فقد كان يُرسل كلُّ نبي إلى قومه خاصة، بينما أُرسل نبي الرحمة إلى الناس كافةً بشيراً ونذيراً إلى قيام الساعة .

جاء هذا النبي ﷺ ليُخرِج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الجهل إلى العلم، ليعيش العالم جميعاً حالةً من الرخاء والازدهار والطمأنينة والأمن والسلام والسعادة . فكانت بعثته ﷺ بحدّ ذاتها رحمة للعوالم ورأفة بالمخلوقات . وهذه من أهمّ خصوصيات هذه الشريعة الحنيفية السمحة .

قال تعالى : ﴿ الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم: ١] .

رأفته ورحمته بالضعفاء والمساكين :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن امرأة سوداء كانت تقم[١] المسجد، أو شاباً، ففقدها رسول الله ﷺ فسأل عنها أو عنه، فقالوا: مات . قال: « **أفلا كنتم آذنتموني** ». قال: فكأنهم صغروا أمرها أو أمره، فقال: « **دلوني على قبره** ». فدلوه، فصلى عليها، ثم قال: « **إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها، وإن الله عز وجل ينورها لهم بصلاتي عليهم** ».[٢]

هذا هو رسول الرأفة والرحمة، كان يسأل عن الجميع ويتفقّد الجميع، ولو كان الشخص لا يؤبه له، فلا يشتغل بالكبير عن الصغير، ولا بالغَنِيّ عن الفقير، ولا بالقوي عن الضعيف، وعندما بلغه خبر الموت أسرع ﷺ إلى القبر ليصلّي على من مات حتّى تنوّر لهم القبور بصلاته عليهم، لحسن رعايته ورحمته ﷺ بأمته .

رأفته ورحمته ﷺ بالأيتام :

عن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **وأنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا** ». وأشار بالسبابة والوسطى، وفرّج بينهما شيئاً .[٣]

---

(١) تقم المسجد : تكنسه وتنظفه وتزيل القمامة منه ، يقال : قمّ البيت قماً: كنسه، فهو قمام .

(٢) أخرجه البخاري (١٣٣٧) في كتاب الجنائز، (باب الصلاة على القبر بعد ما يدفن) . ومسلم (٩٥٦) في كتاب الجنائز، (باب الصلاة على القبر) .

(٣) أخرجه البخاري (٥٣٠٤) في كتاب الطلاق، (باب اللعان) .

هكذا يوصي نبي الرحمة والرأفة بالأيتام لنكفلهم فنقوم بأمورهم ونهتم بشؤونهم، ورتّب على تلك الكفالة الضمانة بالجنة إذا قمنا بها على الوجه المطلوب .

رأفته ورحمته ﷺ بالأطفال :

عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، قال: أرسلت ابنة النبي ﷺ إليه: إن ابناً لي قُبِضَ فأتنا، فأرسل يقرئ السلام ويقول: « **إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكلٌّ عنده بأجل مسمى فلتصبر ولتحتسب** » . فأرسلت إليه تقسم عليه ليأتينها، فقام ومعه سعد بن عبادة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وزيد بن ثابت ورجال، فرُفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع[١]، قال: حسبته أنه قال: كأنها شَنٌّ، ففاضت عيناه، فقال سعد: يا رسول الله، ما هذا ؟ فقال: « **هذه رحمة جعلها الله تعالى فى قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء** » .[٢] وفي رواية: « **في قلوب من شاء من عباده** » .[٣]

نلاحظ في هذا الحديث الشريف أن شفقته ﷺ بلغت مبلغاً عندما أقعد الصبي في حجره وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، ففاضت عينا رسول الرأفة ﷺ ليضرب للعالم أجمع، أعلى وأرفع معاني الرحمة والرأفة والشفقة والعطف بهذه الصورة المشعّة التي فقدها كثير ممّن يتاجرون بحقوق الأطفال . هذه هي الرحمة التي قذفها الله تعالى في قلبه ﷺ ليرحم بها الأطفال وغيرهم .

رأفته ورحمته ﷺ بالنساء :

عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: « **استوصوا بالنساء، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإنّ أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء** ».[٤]

لم تشعر أيُّ امرأة بالرأفة والرحمة وتذق طعمها، كما شعرت المرأة المسلمة، فعاشت في تلك الرحمة، وانغمست فيها إلى أخمص قدمها، فشربت منها حتى ارتوت،

---

(١) قعقع الشيء : أحدث صوتاً عند التحريك أو التحرك . نفسه تتقعقع: أي تضطرب : تصعد وتنزل .

(٢) أخرجه البخاري (١٢٨٤) في كتاب الجنائز، (باب قول النبي ﷺ: « **يعذب الميت ببعض بكاء أهله عليه** »). ومسلم (٩٢٣) في كتاب الجنائز، (باب البكاء على الميت) .

(٣) أخرجه البخاري (٥٦٥٥) في كتاب المرضى، (باب عيادة الصبيان) .

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٣١) في كتاب أحاديث الأنبياء، (باب خلق آدم وذريته) . ومسلم (١٤٦٨) في كتاب الرضاع، (باب الوصية بالنساء) .

فحسدوها على هذه النعمة العظيمة، فصدّروا إليها جمعيات حقوق المرأة، ليحرموها نعمة الرحمة والرأفة، ويلقوا بها في بؤر الظلم والقسوة والظلام والعبودية .

رأفته ورحمته ﷺ بالإماء والعبيد والخدام :

عن أنس رضي الله عنه قال: (إن كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد النبي ﷺ فتنطلق به حيث شاءت).[1]

ما أعظمها من رحمة ! وما أروعها من رأفة ! هذه أَمَةٌ من إماء المدينة تأخذ بيد النبي ﷺ فتنطلق به حيث شاءت، إما ليجلب لها مصلحة أو يدرأ عنها مفسدة .

٢ ـ عن أبي علي سويد بن مقرن رضي الله عنه قال: (لقد رأيتُني سابع سبعة من بني مقرن ما لنا خادم إلا واحدة، لطمها أصغرنا، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نعتقها).[2]

وعن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال: كنت أضرب غلاماً لي بالسوط، فسمعت صوتاً من خلفي: « **اعلم أبا مسعود** ». فلم أفهم الصوت من الغضب، قال : فلما دنا مني، إذا هو رسول الله ﷺ، فإذا هو يقول: « **اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود** ». قال : فألقيت السوط من يدي، فقال : « **اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام** » . قال: فقلت: لا أضرب مملوكاً بعده أبداً .[3]

ينهى النبي ﷺ عن ضرب العبيد والخدام وما ذلك إلا لشفقته ﷺ بهؤلاء المستضعفين الذين لا حول لهم ولا قوة، وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على أن نبينا صلى الله عليه وسلم أرأف وأرحم الخلق بالخلق من أي لون وعرق كانوا .

رأفته ورحمته ﷺ بالجار والضيف :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت** » .[4]

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٧٢) في كتاب الأدب، (باب الكبر) . والأمة : الوليدة . انظر : فتح الباري (٥٠٥/١٠) .

(٢) أخرجه مسلم (١٦٥٦) في كتاب الأيمان، (باب صحبة المماليك، وكفارة من لطم عبده) .

(٣) أخرجه مسلم (١٦٥٩) في كتاب الأيمان، (باب صحبة المماليك، وكفارة من لطم عبده) .

(٤) أخرجه البخاري (٦٠١٨) في كتاب الأدب، (باب : « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذِ جاره** »). ومسلم (٤٧) في كتاب الإيمان، (باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير، وكون ذلك كلّه من الإيمان) .

وفي رواية: « **فليحسن إلى جاره** » .[١]

في هذا الحديث الشريف تتجلى بوضوح رحمة النبي ﷺ ورأفته بكل أفراد المجتمع الإنساني وطبقاته، وتعمّ الجميع بدون استثناء، فلا فرق لديه بين قريب وبعيد، أو مقيم ومسافر، فهو ﷺ يرحم الجار المسلم القريب ويعطيه ثلاثة حقوق، ويرحم الجار المسلم ويعطيه حقين، ويرحم الجار الكافر ويعطيه حقاً واحداً [٢]، وكذلك يرحم الضيف من أي بلد جاء ومن أي جنسية كان .

رأفته ورحمته ﷺ بالأموات :

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: « **لا تسبّوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدّموا** » .[٣]

ما أحسن هذا الإسلام وأجمله، حيث كان يرحم الإنسان حال كونه حياً وميّتاً! وهذا هو نبي الإسلام ﷺ يأمرنا بأن نرحم الأموات وينهانا أن نؤذيهم بالسبّ وغيره . فأيّ دين وصل إلى ما وصل إليه ديننا من احترام الإنسان حيّاً وميّتاً ؟!

رأفته ورحمته ﷺ بالحيوانات :

١ ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « **عذّبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها ولا سقتها، إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش[٤] الأرض** » .[٥]

٢ ـ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فانطلق لحاجته فرأينا حمّرة[٦] معها فرخان، فأخذنا فرخيها، فجاءت الحمّرة فجعلت تفرّش[٧]، فجاء النبي ﷺ فقال: « **من فجع هذه بولدها ؟ ردّوا ولدها إليها** » ورأى قرية نمل قد حرّقناها،

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨) في كتاب الإيمان، (باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير، وكون ذلك كلّه من الإيمان) .

(٢) يشير إلى حديث أخرجه البزار (٢/٣٨٠) وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٣٤٩٣) .

(٣) أخرجه البخاري (١٣٩٣) في كتاب الجنائز، (باب ما ينهى من سبِّ الأموات) .

(٤) خشاش : حشرات الأرض وهوامها، وتطلق على الطير ونحوه .

(٥) أخرجه البخاري (٣٤٨٢) في كتاب أحاديث الأنبياء . ومسلم (٢٢٤٢) في كتاب السلام، (باب تحريم قتل الهرة) .

(٦) الحمرة : بضم الحاء وتشديد الميم، صنف من الطير في ريشه حمرة .

(٧) تحوم حولهم كما هو العادة أن الطائر إذا أخذ أولاده جعل يعرض ويحوم ويصيح لفقد أولاده .

فقال: « **من حرّق هذه** » قلنا: نحن . قال: « **إنه لا ينبغي أن يعذّب بالنار إلا ربّ النار** » .(١)

لم تقتصر رأفة النبي ﷺ ورحمته ببني آدم فقط، بل تعدّت لتشمل الحيوانات . وما قرّره نبيّنا ﷺ من الرأفة والرحمة بهذه العجماوات، لن تصل إليه كل جمعيات الرفق بالحيوان مهما بلغت من التقدم والتطور .

رأفته ورحمته ﷺ بالجمادات : حنين الجذع إلى النبي ﷺ:

جذع يابس يحضنه ﷺ كما تحضن الأم الرؤوم وليدها . ما هذه الرحمة العظيمة التي تنبع من قلب هذا النبي العظيم ؟! لتنصبّ على هذا الجذع اليابس، فيعانقه ﷺ بين ذراعيه ويضمه إلى صدره بحنان ويلمسه برفق ليكفكف دموعه ويزيل عنه عبرة الأسى والحزن .(٢)

ما أعظمه من نبي وما أرحمه ﷺ من رسول !!

واللّه لو أنّ الكفار رأوا جوانب من هذه السيرة العطرة لدخلوا في الإسلام أفواجاً أفواجاً، ولكن المستشرقين والمستغربين هم الذين يشوّهون صورة هذا النبي العظيم ﷺ.

رأفته ورحمته ﷺ بالكفار من مشركي مكة :

بعد فتح مكّة جاء في كتب السيرة المعتمدة أن النبي ﷺ قال لمشركي قريش وكفارهم : « **يا معشر قريش ! ما ترون أني فاعل بكم ؟** » قالوا: خيراً، أخٌ كريم، وابن أخٍ كريم . قال : « **فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته :** ﴿ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ ﴾ [يوسف: ٩٢]، **اذهبوا فأنتم الطلقاء** » .(٣)

تدلنا هذه القصة أن النبي ﷺ كان رحيماً ورؤوفاً بقومه من المشركين حتى عفا وصفح عنهم، ولم ينتقم لنفسه وينتصر لها، بل عاملهم معاملة في غاية الرحمة والحنان، كما تعامل الأم رضيعها، وهكذا هو صلى اللّه عليه وسلّم مع جميع الناس، حتى لو قدم له هذا الدانماركي السفيه، ربّما عفا عنه وصفح كما فعل ﷺ مع أهل مكة وأهل الطائف وأهل هوازن .

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٧٥) في كتاب الجهاد، (باب في كراهية حرق العدو بالنار) .

(٢) انظر صحيح البخاري (٣٥٨٤) في كتاب المناقب، (باب علامات النبوة في الإسلام) .

(٣) انظر السيرة النبوية لابن هشام (٤١٢/٢)، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (١١٦٣) .

رأفته ورحمته ﷺ بأمته شفقة عليهم :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ تلا قول الله عزَّ وجلّ في إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ﴾ [إبراهيم: ٣٦] ... الآية . وقال عيسى عليه السلام : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٨] فرفع يديه وقال: « **اللهم أمتي أمتي !** » وبكى . فقال الله عزَّ وجلّ: « **يا جبريل ! اذهب إلى محمد، وربك أعلم، فسله ما يبكيك ؟** » فأتاه جبريل عليه السلام. فسأله، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم . فقال الله عزَّ وجلّ: « **يا جبريل ! اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك**» .[١]

هذا هو نبينا وحبيبنا وشفيعنا صلوات ربي وسلامه عليه، نبي الرأفة والرحمة والعطف والحنان والشفقة، لم نرَ قبله ولا بعده إنساناً بلغ هذه المرتبة العظيمة، وأعطي هذه الرأفة والشفقة، حتى أنه بكى من أجل أمته، وهذا يدلّ على أنه لم يكن أنانياً يحبّ نفسه فقط، ولا مستأثراً بما حباه الله من نعم دينية ودنيوية، بل كان يؤثر على نفسه ولو كان به خصاصة .

وأكبر دليل على ما قلنا : إن كل نبي كان له دعوة مستجابة دعاها في الحياة الدنيا، واستجاب الله لهم، إلا نبيّنا ﷺ أجّل دعوته وأخّرها إلى يوم القيامة، رأفة بأمته ورحمة بهم وشفقة عليهم .

ومن هنا تظهر وتتبين أفضليته وسيادته وعظمته وخيريته ﷺ على غيره من الأنبياء والرسل صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين .

وأخيراً نستخلص ممّا استعرضناه أن النبي محمداً ﷺ له رأفة ورحمة عامة تعمّ جميع الخلق (الإنس والجن والحيوانات والجمادات) كما تقرّر في الأبواب السابقة، وهذه الرحمة العامة مقيّدة في الحياة الدنيا .

وله رأفة ورحمة خاصة، تختصّ بأمته فقط ـ أمة الإسلام ـ ممّن آمن بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، وهذه الرحمة الخاصة لأمته مطلقة غير مقيّدة في الدنيا والآخرة .

---

(١) رواه مسلم (٢٠٢) في كتاب الإيمان، (باب دعاء النبي ﷺ لأمته وبكائه شفقة عليهم) .

ولا يدخل في هذه الرأفة والرحمة أحد من غير المسلمين، لذا نوجه الدعوة إلى جميع المنتسبين لغير دين الإسلام ونقول لهم : ﴿ ٱدۡخُلُوا فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةً ﴾ [البقرة: ٢٠٨] أي في الإسلام حتى تصيبكم هذه الرأفة وهذه الرحمة، وتسعدوا بدخول الجنة .

الخاتمة :

هذه نماذج رائعة، وصور حيّة من رأفته ورحمته ﷺ، اخترناها من بين كثير من المواقف والمشاهد التي مرّت في حياته ﷺ . ولو أردنا جمعها وحصرها لما وسعها مجلدات ضخام، هذا فضلاً عن رأفته ورحمته بأمّته، بل بالناس جميعاً يوم القيامة، عندما يشفع الشفاعة الكبرى، ويسجد عند العرش طويلاً، ويحمد الله تعالى بمحامد لم يكن يعرفها من قبل، ثم يناديه ربّه عزَّ وجلّ : « **يا محمد ! ارفع رأسك، سل تعطَه، واشفع تشفّع** ».[1] يا الله، كم منحتَ هذا النبي العظيم ﷺ منحاً لا تكاد تعدّ وتحصى، ومن أعظمها الرأفة والرحمة بالناس جميعاً في الدنيا والآخرة .

بهذه الأخلاق العظمى وصل نبيّنا ﷺ إلى أعلى مقامات الرحمة والرأفة، بل وتربّع على عرشهما فلا يصل أحد من البشر إلى هذه المنزلة الرفيعة، والمقام العالي، لأنّ الله سبحانه وتعالى خصّه بخصائص ومزايا انفرد بها عن جميع الخلق .

وخلاصة القول إن نبينا محمداً ﷺ هو أرأف وأرحم إنسان عرفته البشرية على مدى الدهور والأزمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فهو أعرف الخلق بالحق وأرحمهم بالخلق، لذلك أُرسل إلى جميع الثقلين، وجعل خاتم النبيين وسيّد المرسلين .

فصلّى الله وسلّم وبارك على هذا النبي الأمّيّ وعلى آله وأصحابه ومن سلك طريقه إلى يوم الدين، وسلّم تسليماً كثيراً . والحمد لله رب العالمين .



(١) أخرجه البخاري (٤٧١٢) في كتاب التفسير، (باب : ﴿ ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدًا شَكُورًا ۝٣ ﴾) . ومسلم (١٩٤) في كتاب الإيمان، (باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها) .